شذرات العشرين

خواطر قصيرة

عبد الرحمن امنيصير

اسم الكتاب : شذرات العشرين

إصدار: 2024

اسم دار: الجهاد

تأليف : عبد الرحمن امنيصير

نوع العمل: رواية

تصميم الغلاف : جهاد ممدوح

تنسيق وتصميم داخلي : جهاد ممدوح

oooooooooooooooooooooooooooooooooooooooooooooooooooooooooooooooooo

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس، أو تقليد أو طبع أو نشر دون موافقة كتابية، يعرض صاحبه للمسألة قانونية، أما الحقوق الملكية الفكرية والآراء، والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

دار الجهاد للنشر الإلكتروني

المقدمة

هَذا البَوحُ الَّذي أَنثُرُهُ بَينَ يَدَيكَ كَالدُّرِّ المَنثورِ، هوَ خُلاصَةُ مَشاعِرَ تَخَمَّرَت في قَلبي وَعَقلي خِلالَ العَقدِ الثّاني مِن رَحلَتي في هَذِهِ الحَياةِ. إنَّها لَتَجرِبَةٌ فَريدَةٌ، كَفَريدَةِ العِقدِ، تَجمَعُ بَينَ حَرارَةِ الشَّبابِ وَحِكمَةِ التَّجارِبِ.

وَقَد أَبَيتُ، وَحَقِّ السَّماءِ وَالأَرضِ، إلّا أَن أُوَثِّقَ هَذِهِ المَشاعِرَ بِقَلَمي، كَما يُوَثِّقُ النَّقّاشُ نَقشَهُ عَلى الصَّخرِ. فَالكِتابَةُ، يا صاحِبي، هيَ الجِسرُ الَّذي يَعبُرُ بِنا مِن ضِفافِ الحاضِرِ إلى شَواطِئِ الخُلودِ.

وَإِنّي لَعَلى يَقينٍ، كَيَقينِ الفارِسِ بِسَيفِهِ، أَنَّكَ سَتَجِدُ نَفسَكَ بَينَ هَذِهِ الأَسطُرِ، كَما يَجِدُ الظَّمآنُ واحَةً في صَحراءَ قاحِلَةٍ. سَتَتَغَلغَلُ هَذِهِ الخَواطِرُ في قَلبِكَ، كَما يَتَغَلغَلُ النَّدى في أَوراقِ الزَّهرِ عِندَ الفَجرِ.

وَلَعَلَّكَ، في لَحظَةٍ مِن لَحَظاتِ التَّأَمُّلِ، سَتَظُنُّ – وَالظَّنُّ أَحياناً يُغني عَنِ اليَقينِ – أَنَّني أَتَحَدَّثُ عَنكَ أَنتَ، كَأَنَّما نَظَرتُ في مِرآةِ رُوحِكَ وَسَبَرتُ أَغوارَ قَلبِكَ.

فَهَذِهِ الكَلِماتُ، يا رَفيقَ الدَّربِ، لَيسَت مُجَرَّدَ حُروفٍ تُخَطُّ عَلى وَرَقٍ، بَل هيَ نَبَضاتُ قَلبٍ حَيٍّ، وَزَفَراتُ رُوحٍ مُتَأَلِّمَةٍ، وَهَمَساتُ نَفسٍ حائِرَةٍ. إنَّها صَدى لِصَرخاتٍ صامِتَةٍ، وَتَرجَمَةٌ لِدُموعٍ لَم تُذرَف، وَتَجسيدٌ لِأَحلامٍ لَم تَتَحَقَّق بَعد.

في هَذِهِ السُّطورِ، سَتَجِدُ حَماسَةَ الشَّبابِ المُتَّقِدَةِ كَالنّارِ في الهَشيمِ، وَسَتَلمَسُ خَيبَةَ الآمالِ الَّتي تُشبِهُ مَرارَةَ الحَنظَلِ. سَتَشهَدُ صِراعَ الذّاتِ مَعَ نَفسِها، كَصِراعِ الفارِسِ مَعَ ظِلِّهِ. وَسَتَرى كَيفَ تَتَصارَعُ الأَحلامُ مَعَ الواقِعِ، كَتَصارُعِ المَوجِ مَعَ الصَّخرِ.

هُنا، بَينَ ثَنايا هَذِهِ الكَلِماتِ، سَتَجِدُ الحُبَّ بِكُلِّ تَجَلِّياتِهِ: عَذباً كَماءِ السَّلسَبيلِ، وَمُرّاً كَالعَلقَمِ. سَتَرى الصَّداقَةَ في أَسمى صُوَرِها، وَالخِيانَةَ في أَبشَعِ أَشكالِها. سَتَلمَسُ الطُّموحَ الَّذي يُحَلِّقُ كَالنَّسرِ في الأَعالي، وَالإِحباطَ الَّذي يَزحَفُ كَالأَفعى في الوِديانِ.

وَفي كُلِّ كَلِمَةٍ، في كُلِّ حَرفٍ، سَتَجِدُ جُزءاً مِن رُوحي، وَشَظِيَّةً مِن قَلبي. فَهَذِهِ الخَواطِرُ لَيسَت مُجَرَّدَ كَلِماتٍ عابِرَةٍ، بَل هيَ شَهاداتٌ حَيَّةٌ عَلى رِحلَةٍ في دُروبِ الحَياةِ، مَليئَةٍ بِالمَطَبّاتِ وَالمُنعَطَفاتِ.

(1)

إنَّ المَرءَ في هَذِهِ الحَياةِ كَالقَمَرِ في أَطوارِهِ، تَعتَريهِ حالاتٌ شَتّى، وَتَنتابُهُ أَحوالٌ مُختَلِفَةٌ. فَتارَةً يَكونُ كَالبَدرِ في تَمامِهِ، يَشُعُّ نوراً وَبَهاءً، وَتارَةً أُخرى يَخبو ضِياؤُهُ حَتّى يَكادُ يَمّحي.

وَإِنَّهُ لَمِنَ المَألوفِ، بَل مِنَ السُّنَنِ الكَونِيَّةِ الجارِيَةِ، أَن تَنضُبَ طاقَةُ المَرءِ أَحياناً، فَيَغدو كَالسَّيفِ الَّذي أَضناهُ القِراعُ، أَو كَالجَوادِ الَّذي أَنهَكَهُ السِّباقُ. فَيُمسي وَقَد خارَت قُواهُ، وَوَهَنَت عَزيمَتُهُ، وَاستَحالَ إِلى ما يُشبِهُ الظِّلَّ الباهِتَ لِذاتِهِ.

في تِلكَ اللَّحَظاتِ، لا يُقالُ عَنهُ إِنَّهُ مَغمومٌ أَو مَهمومٌ، وَلا يُوصَفُ بِأَنَّهُ مُتَبَرِّمٌ أَو مُتَذَمِّرٌ. بَل هوَ في حالَةٍ أَشبَهُ بِالسُّكونِ الَّذي يَعقُبُ العاصِفَةَ، أَو الصَّمتِ الَّذي يَلي الضَّجيجَ. إِنَّهُ كَالأَرضِ الَّتي أَنهَكَها الحَصادُ، فَهِيَ تَستَكينُ لِتَستَعيدَ خُصوبَتَها.

في هَذِهِ الحالِ، يَعجَزُ المَرءُ عَن الكَلامِ، كَأَنَّ لِسانَهُ عَقَدَهُ سِحرٌ خَفِيٌّ. وَتَثقُلُ عَلَيهِ الحَرَكَةُ، فَكَأَنَّما أَوصالُهُ صُنِعَت مِن رَصاصٍ. أَمّا رُدودُ أَفعالِهِ فَتَغدو بَطيئَةً مُتَثاقِلَةً، كَحَرَكَةِ الظِّلِّ عَلى وَجهِ السّاعَةِ الشَّمسِيَّةِ.

في هَذِهِ اللَّحَظاتِ، يَحتاجُ المَرءُ إِلى فَتَراتٍ طَويلَةٍ مِنَ السُّكونِ وَالخُلوَةِ، يَستَسلِمُ فيها لِحالَةٍ مِنَ العَدَمِيَّةِ المُؤَقَّتَةِ. كَأَنَّهُ يَنسَحِبُ مِن مَعرَكَةِ الحَياةِ لِيَلتَقِطَ أَنفاسَهُ، أَو كَأَنَّهُ يَغوصُ في أَعماقِ ذاتِهِ بَحثاً عَن يَنابيعِ الطّاقَةِ المَدفونَةِ.

وَما هِيَ إِلّا فَترَةٌ مِنَ الزَّمَنِ، قَد تَطولُ أَو تَقصُرُ، حَتّى يَبدَأُ المَرءُ بِالعَودَةِ إِلى سابِقِ عَهدِهِ، كَما تَعودُ الشَّمسُ لِلإِشراقِ بَعدَ لَيلٍ طَويلٍ. فَشَيئاً فَشَيئاً، وَقَطرَةً قَطرَةً، تَبدَأُ يَنابيعُ الحَياةِ بِالتَّدَفُّقِ في عُروقِهِ مِن جَديدٍ.

يَعودُ صَوتُهُ لِلارتِفاعِ تَدريجِيّاً كَأَنَّهُ نايٌ عَزَفَ عَنهُ صاحِبُهُ حيناً ثُمَّ عادَ إِلَيهِ. وَتَنسابُ الحَرَكَةُ في جَسَدِهِ كَما يَنسابُ الماءُ في فَكَما لِلطَّبيعَةِ مَواسِمُها، جَدوَلٍ جَفَّ ثُمَّ عادَت إِلَيهِ الحَياةُ. وَتَستَعيدُ رُدودُ أَفعالِهِ حَيويَّتَها وَتَلقائِيَّتَها، كَأَنَّما أُزيحَ عَنها غِطاءٌ ثَقيلٌ. وَلِلنَّهارِ وَاللَّيلِ دَورَتُهُما، فَكَذلِكَ لِلإِنسانِ فَتَراتُ نَشاطِهِ وَخُمولِهِ، وَأَوقاتُ قُوَّتِهِ وَضَعفِهِ.

(2)

إنّني لَستُ بِذي حِقدٍ يَسري في عُروقي كَالسُّمّ الزُّعافِ، وَلا بِناقِمٍ يَحمِلُ في صَدرِهِ جَمرَ الغَضَبِ المُستَعِرِ. بَيدَ أَنَّني لَستُ بِالمُسامِحِ السّاذِجِ، أَو العافي عَن كُلّ إساءَةٍ لَحِقَت بي.

فَوَاللهِ، لا أَغفِرُ لِمَن مَرَّ بِحَياتي كَالإعصارِ المُدَمِّرِ، يَزعُمُ أَنَّهُ يُلَقِّنُني دَرساً، وَهوَ في الحَقيقَةِ يَسلُبُ مِنّي جَوهَرَ رُوحي. كَيفَ أَصفَحُ عَمَّن سَرَقَ شَغَفي الَّذي كانَ يَتَّقِدُ في قَلبي كَالشَّمسِ المُشرِقَةِ؟ وَكَيفَ أَعفو عَمَّن اغتالَ عَفوِيَّتي الَّتي كانَت تَتَدَفَّقُ كَالنَّهرِ العَذبِ؟

حَوَّلَتني تِلكَ التَّجارِبُ المَريرَةُ إلى إنسانٍ آخَرَ، كَأَنَّما سُلِخَت رُوحي مِن جَسَدي وَأُلبِسَت ثَوباً غَريباً. صِرتُ حَذِراً كَالظَّبيِ في أَرضِ الصَّيّادينَ، مَملأً كَلَيلَةٍ مُظلِمَةٍ لا قَمَرَ فيها، بائِساً كَطائِرٍ مَهيضِ الجَناحِ.

آهٍ، كَم أَشتاقُ إلى ذاكَ الفَتى الَّذي كُنتُهُ، ذاكَ الَّذي كانَ يَرى في كُلّ إنسانٍ صَديقاً، وَفي كُلّ ابتِسامَةٍ صِدقاً. لَكِنَّ الأَيّامَ الغادِرَةَ وَالتَّجارِبَ القاسِيَةَ سَرَقَت مِنّي تِلكَ البَراءَةَ، وَتَرَكَتني أَتَخَبَّطُ في ظَلامِ الشَّكِّ وَالرَّيبَةِ.

قَلبي الآنَ كَقَلعَةٍ مُحَصَّنَةٍ، لا يَدخُلُها إلّا مَن أَثبَتَ جَدارَتَهُ وَصِدقَ نَواياهُ. وَإِنَّ رُوحي كَبُستانٍ ذابِلٍ، يَنتَظِرُ مَن يُعيدُ إلَيهِ نَضارَتَهُ وَبَهجَتَهُ.

وَإِنّي لَأَرجو أَن يَأتيَ اليَومُ الَّذي أَستَعيدُ فيهِ شَغَفي المَفقودَ، وَعَفوِيَّتي المَسلوبَةَ. يَومٌ أَنظُرُ فيهِ إلى العالَمِ بِعَينَينِ جَديدَتَينِ، فَأَرى الجَمالَ في كُلّ شَيءٍ، وَالخَيرَ في كُلّ إنسانٍ.

(3)

إنّني أُقِرُّ وَأَعتَرِفُ، بِلِسانٍ فَصيحٍ وَقَلبٍ جَريحٍ، أَنّني لَستُ مِمَّن يَتَّسِعُ صَدرُهُ لِكُلِّ واردٍ وَشاردٍ. فَأَنا كَالصَّخرَةِ الصَّمّاءِ، لا أَلينُ لِغَيرِ الحَقِّ وَلا أَنحَني إلّا لِلفَضيلَةِ.

أَرفُضُ الكَلِمَةَ السَّيِّئَةَ رَفضَ الصَّحراءِ لِلماءِ الآسِنِ، وَأَنبُذُ المِزاحَ الثَّقيلَ نَبذَ البَحرِ لِلجِيَفِ. أَتَصَدّى لِتَقليلِ الاحتِرامِ كَما يَتَصَدّى الأَسَدُ لِمَن يَجرُؤُ عَلى اقتِحامِ عَرينِهِ.

أَقِفُ ضِدَّ التَّمادي وَالوَقاحَةِ المُتَخَفِّيَةِ خَلفَ قِناعِ "المزاحِ" كَوُقوفِ الجِبالِ الرّاسِياتِ في وَجهِ الرِّياحِ العاتِيَةِ. فَإِنَّ هَذِهِ السَّذاجَةَ لَهِيَ أَشَدُّ فَتكاً مِن سَيفٍ مَسمومٍ، وَأَكثَرُ إيلاماً مِن سَهمٍ نافِذٍ.

إنّني أُعلِنُها صَريحَةً مُدَوِّيَةً: أَنا ضِدَّ كُلِّ مِزاحٍ يُساهِمُ في تَقليلي وَإحراجي. فَكَرامَتي أَغلى عِندي مِن ماءِ الحَياةِ، وَعِزَّتي أَثمَنُ في نَفسي مِن كُنوزِ قارونَ.

لا أَحَدَ يَملِكُ الحَقَّ في المَساسِ بِكَرامَتي، أَو النَّيلِ مِن عِزَّتي. فَإِنَّ حُرمَةَ المَرءِ كَحُرمَةِ الكَعبَةِ المُشَرَّفَةِ، لا يَجوزُ انتِهاكُها أَو الاستِهانَةُ بِها.

إنَّ احتِرامي لِذاتي هُوَ الدِّرعُ الَّذي أَتَّقي بِهِ سِهامَ الزَّمانِ، وَالحِصنُ المَنيعُ الَّذي أَحتَمي بِهِ مِن غَدرِ الأَيّامِ. فَمَن أَهانَ نَفسَهُ فَقَد أَهانَ الإنسانِيَّةَ جَمعاءَ، وَمَن رَضِيَ بِالذُّلِّ فَقَد خانَ أَمانَةَ الكَرامَةِ الَّتي أَودَعَها اللهُ في فِطرَةِ البَشَرِ.

(4)

أضحَتْ رِحلَتي في هَذِهِ الدُّنيا كَسَرابٍ بِقيعَةٍ، أخالُهُ ماءً حَتّى إذا جئتهُ لَمْ أجِدْهُ شَيئاً. فَريدٌ أنا في مَسيرَتِي، وَحيدٌ في دَربِي، لا رَفيقَ يُؤنِسُ وَحشَتَي، ولا خِلٌّ يُبَدِّدُ ظُلمَةَ لَيلِي.

أينَ ذاكَ القَلبُ الحَنونُ الَّذي يَنبِضُ بِالحُبِّ والعَطفِ؟ تَلاشى كَما يَتَلاشى النَّدى في حَرِّ الظَّهيرَةِ. وَأينَ كَتِفُ الصَّديقِ الَّتي أتَّكِئُ عَلَيها في ساعاتِ الضِّيقِ؟ انهارَتْ كَما تَنهارُ أطلالُ القُصورِ العَتيقَةِ.

رِحلَة قاسِيَة، أمضي فيها وَحيداً كَالسَّهمِ في جَوفِ اللَّيلِ، لا يُؤنِسُني سِوى صَدى خُطواتِي، ولا يُرافِقُني إلّا ظِلِّي الَّذي يَتَراقَصُ عَلى جِدارِ الزَّمَنِ.

طائِرٌ مُهاجِرٌ، أشُقُّ عَنانَ السَّماءِ بِجَناحَينِ مُتعَبَينِ، لا أجِدُ سِرباً أنضَمُّ إلَيهِ، ولا غُصناً أحُطُّ عَلَيهِ لِأستَريحَ مِن عَناءِ السَّفَرِ.

(5)

إذا بلغت أوج نضجك، وارتقيت ذروة الحكمة، ستدرك حقيقة جلية مفادها أن ما تحتاجه ليس مجرد لسان يلهج بذكرك، أو صوت يتردد صداه في أذنيك كل حين. بل ما تبتغيه هو قلب يحمل اسمك منقوشاً على صفحاته، وروح تعرف قدرك حق المعرفة.

ستبحث عمن يثبت وجودك في حياته كثبات الجبال الرواسي، لا تزعزعه عواصف الزمان، ولا تقتلعه رياح الخلافات العاتية. ذاك الشخص الذي يبقى على عهده، راسخاً كشجرة السنديان، مهما طال البعاد وتعددت الدروب.

تاق إلى من يدرك، في قرارة نفسه، أنه مهما جال في الآفاق، وصادف من الناس ألوفاً، فلن يجد من يضاهيك أو يحل محلك. فأنت له كالماء للظمآن، وكالنور للحائر في ظلمات الليل البهيم.

(6)

أَلا إنَّ الزمانَ ذو صروفٍ وتقلُّبات، وإنَّ الدهرَ ذو غدواتٍ وروحات. فها أنتَ يا صاحِ، تَروم العودةَ إلى ماضيكَ البعيد، تَنشُدُ أيامَ الصِّبا الغضَّة، وتَبتغي استرجاعَ ذكرياتِ الطفولةِ العذبة. ولكن هيهاتَ هيهات! فما الماضي إلا سرابٌ خادع، وما الذكرياتُ إلا أطلالٌ دارسة.

تَعودُ إلى مَرابعِ الصِّبا، فتجدُ المدرسةَ القديمةَ شامخةً كما كانت، بجدرانِها العتيقةِ وساحاتِها الفسيحة. ولكن أين الرِّفاقُ وأين الأصحاب؟ لقد طارَت بهم الرِّياحُ إلى آفاقٍ بعيدة، وتفرَّقوا في الأرضِ كأيدي سبأ. فلا تسمعُ إلا صدى ضحكاتِهم في الفضاء، ولا ترى إلا أشباحَهم تَتراءى لك في الخيال.

وها هو ذا بيتُ طفولتِك، قائمٌ على أُسُسِه، صامدٌ في وجهِ الزمان. تَقِفُ على بابِه كما كنتَ تَقِفُ بالأمس، ولكن أين العائلةُ التي تَسكُنُه؟ أين الأمُّ التي تَنتظرُك بشوقٍ ولهفة؟ وأين الأبُ الذي يَربِّتُ على كتفِك بحنانٍ وعطف؟ غادروا المكانَ تاركين وراءَهم ذكرياتٍ عالقةً في الجدران، وأصداءً خافتةً في الأرجاء.

وفي زاويةِ الحيِّ، يَقبَعُ محلُّ البقالةِ القديم، الذي طالما تردَّدتَ عليه في صِغَرِك. لا يزالُ مفتوحاً يَستقبلُ الزبائن، ولكن أين ذلك العاملُ الودودُ الذي يَحفظُ طلبَك عن ظهرِ قلب؟ رحلَ وتركَ مكانَه لوجهٍ جديدٍ لا يعرفُ عنك شيئاً.

تَسيرُ في الشوارعِ المألوفة، تَتلمَّسُ طريقَك بين الأزقَّةِ والحارات. كلُّ حجرٍ فيها يُناجيك، وكلُّ منعطفٍ يُذكِّرُك بحكايةٍ من حكاياتِ الطفولة. ولكن الوجوهَ التي تُصادِفُها غريبةٌ عنك، لا تعرفُها ولا تعرفُك. كأنَّك غريبٌ في وطنِك، أو ضيفٌ في دارِك.

المباني لا تزالُ قائمةً على حالِها، شاهدةً على مرورِ الزمان. ولكنَّ الطاقةَ قد تبدَّلت، والروحَ قد تغيَّرت. فما عادَ المكانُ يَنبضُ بتلك الحياةِ التي عهدتَها، وما عادت الأجواءُ تَفيضُ بذلك الدفءِ الذي ألِفتَه.

إنَّ الماضي مكانٌ جميلٌ نزورُه في خيالاتِنا، ونَستريحُ في ظلالِه من عناءِ الحاضر. ولكنَّه ليس إلا سراباً يلوحُ في الأفق، كلَّما اقتربنا منه ازدادَ بُعداً. فالحياةُ لا تَجري إلا في مجرى الحاضر، ولا تَتحقَّقُ إلا في لحظةِ الآن.

لا تُفرِط في الحنينِ إلى ماضٍ قد ولَّى، ولا تُسرِف في البكاءِ على زمانٍ قد انقضى. فإنَّ الحياةَ أمامَك، والمستقبلَ يَنتظرُك. انهَل من عِبَرِ الماضي، واستَلهِم من دروسِه، ولكن لا تَدَع قلبَك يَتعلَّقُ به فيُعيقَك عن المضيِّ قُدُماً.

إنَّ الحاضرَ هو الحيِّزُ الذي تَتجلَّى فيه الحياةُ بكلِّ زَخَمِها وثرائِها. ففيه تُصنَعُ الذكرياتُ الجديدة، وفيه تُنسَجُ خيوطُ المستقبل. فاغتنِم لحظاتِك، وعِش يومَك، واصنَع من حاضرِك ماضياً جميلاً تَفخرُ به في الغد.

(7)

في صدري، ذلك المَعقِل الحصين، والحِصن المَنيع، يَعجُّ حَشدٌ غَفيرٌ من الأمنيات، كأنَّه جيشٌ لُجَّيٌّ من الآمال والتطلُّعات. تتزاحمُ فيه الرغباتُ كتزاحُمِ النجومِ في كبدِ السماء، وتتدافعُ فيه الأحلامُ كتدافُعِ أمواجِ البحرِ الهادر.

ومن بينِ هذا الحشدِ الغفير، تَبرُزُ الطُّمأنينةُ شامخةً كالطودِ الأشمّ، باسقةً كالنخلةِ الباسقة. تَسمو فوقَ سائرِ الأمنيات، كما يَسمو البدرُ في ليلةِ تمامِه على النجومِ الخافتة. إنَّها غايةُ المُنى، وقِبلةُ الآمال، ومَحَطُّ الرِّحال.

أيتُها الطُّمأنينةُ، يا درَّةَ تاجِ الأماني، ويا زُبدةَ خُلاصةِ الرَّغبات! كم أتوقُ إليكِ توقَ الظمآنِ إلى الماءِ العَذب، وكم أشتاقُ إلى حضنِكِ الدافئ اشتياقَ الغريبِ إلى وطنِه البعيد. أنتِ السَّكينةُ التي تَهدأُ بها النفسُ الثائرة، والبَلسَمُ الذي يُداوي القلبَ الجريح.

كلُّ الأمنياتِ الأخرى، مهما عَظُمَت وجَلَّت، تتضاءلُ أمامَ عظمتِكِ يا طُمأنينة. فما جدوى الثروةِ إن لم يَصحبها سكونُ النفس؟ وما قيمةُ المجدِ إن لم يُرافقه هدوءُ البال؟ وما نفعُ السُّلطةِ إن لم تَجلب معها راحةَ الضمير؟

أيتها الطُّمأنينة، يا مَن تَسكُنين في أعماقِ الصدورِ وتَستوطنين أغوارَ النفوس! هبيني من فيضِكِ قطرة، ومن نورِكِ شُعاعاً، لعلَّ بذلك تَهدأ عاصفةُ روحي الهوجاء، وتسكنُ ثورةُ مشاعري الجيَّاشة.

وإن لم أظفر بكِ كاملةً، فحسبي أن أنالَ منكِ نصيباً، ولو كان يسيراً. فإنَّ قليلَكِ كثير، وإنَّ ذرَّةً من سكينتِكِ أثمَنُ من كنوزِ الدنيا وما فيها. فبكِ يا طُمأنينة، تكتملُ السعادة، وتتحقَّقُ الغبطة، ويبلغُ المرءُ ذروةَ الرضا والقناعة.

(8)

على شُرفةِ الحُلمِ الشامخةِ أقِفُ، كطودٍ راسخٍ في مهبِّ الرياح، مُترقِّباً عودةَ الغائبِ المُتوارِي خلفَ سُتُرِ الغَيبِ. عيناي تَرنوانِ إلى الأُفقِ البعيدِ، كأنَّهما تُحاولانِ اختراقَ حُجُبِ الزمانِ والمكانِ، لعلَّهما تَلمَحانِ طيفَكِ العائدَ من رِحلةِ الغيابِ الطويلة.

بِريشةِ الحنينِ المُخضَّبةِ بِدماءِ قلبي الواله، أرسُمُ ملامحَكِ على لوحةِ الأفقِ الشاسعة. أُخَطُّ كلَّ تفصيلٍ من تفاصيلِ وجهِكِ البهيّ بدقَّةٍ متناهية، كأنَّني نقَّاشٌ ماهرٌ يُحاولُ حبسَ الجمالِ في إطارٍ من نورٍ وظِلال. فتغدو السماءُ كِتاباً مفتوحاً، وصفحاتُها الزرقاءُ تحكي قصَّةَ عِشقٍ أزليٍّ بينَ عاشقٍ مُتيَّمٍ ومعشوقةٍ غائبة.

وفي غمرةِ هذا الشوقِ المُستعِر، أنثُرُ حروفَ اسمِكِ العَذبِ نجوماً مُتلألِئةً في سماءِ وحدتي القاتمة. كلُّ حرفٍ يتحوَّلُ إلى نجمةٍ مُشِعَّةٍ، تُضيءُ دياجيرَ ليلي الطويل، وتُبدِّدُ ظلماتِ غيابِكِ الموحِش. فيغدو الكونُ كلُّه لوحةً ساويةً، نقشتُ عليها اسمَكِ بأحرفٍ من نورٍ، لتكونَ شاهدةً على عظمةِ حُبّي وخلودِ عِشقي.

أيُّها الليلُ الساجي، يا مَن تلفُّ الكونَ بعباءتِكَ السوداء، وتُغرِقُ العالمَ في سُباتٍ عميق، أتوسَّلُ إليكَ أن تكونَ رسولَ الحبِّ بيني وبينَ محبوبتي النائية. احمِل على أجنحةِ نسيمِكَ العليلِ همساتِ قلبي الولهان، وأوصِلها إلى مسامِعِ مَن سَلبَت لُبّي وأسَرَت فؤادي.

يا نسيمَ الليلِ الرقراق، يا مَن تتسلَّلُ بين أغصانِ الأشجارِ وتُداعِبُ أوراقَها بِرِفق، أستودِعُكَ آهاتِ صدري المكلوم، فاحمِلها برفقٍ إلى حبيبتي الغائبة. اهمِس في أُذنِها بكلماتِ الشوقِ والحنين، وأخبِرها أنَّ قلبي ما زالَ ينبضُ بحُبِّها، وأنَّ روحي تهيمُ في ملكوتِ عِشقِها.

وإذا ما طالَ الانتظار، وأعيتني حيلُ الصبرِ والتجلُّد، فسأظلُّ واقفاً على شُرفةِ الحُلمِ، صامداً كصخرةٍ في وجهِ أمواجِ اليأسِ المُتلاطمة. سأواصلُ رسمَ ملامحِكِ على صفحةِ الأفق، ونثرَ حروفِ اسمِكِ في السماء، حتى يأذنَ القدرُ بعودتِكِ، أو تنفدَ أنفاسي وأنا أُردِّدُ اسمَكِ في خشوعٍ وإجلال.

فيا أيتها الغائبةُ الحاضرة، يا مَن تسكُنينَ القلبَ وتملأينَ الروح، عودي إليَّ قبلَ أن يذوبَ جسدي من فرطِ الشوق، وتنطفئَ شعلةُ روحي في ظلماتِ الفِراق. فإنَّ الحياةَ بدونِكِ كصحراءَ قاحلةٍ لا ماءَ فيها ولا ظِلّ، وإنَّ الوجودَ في غيابِكِ كليلٍ دامسٍ لا فجرَ له ولا نهار.

في خِضَمّ هذا المُجتمعِ الغارقِ في لُجَجِ الجهلِ العاتية، المُثقَلِ بأغلالِ الحسدِ الصدِئة، نجدُ أنفُسَنا – نحنُ حامِلي مَشاعِلِ الأحلامِ المُتوهّجة – نُقدّمُ تلك الأحلامَ السامِيةَ قَرابينَ على مَذبَحِ التعايُشِ القَسري. نَذبَحُها بِسِكّينِ الواقِعِ البارِدِ القاسي، ونَسفِكُ دِماءَها الزَّكِيّةَ على صُخورِ الجَهلِ الصَّمّاءِ.

وا حَسرَتاه على تلك الآمالِ العِذابِ التي كانت بالأمسِ القَريبِ تُزَيّنُ سَماءَ أرواحِنا كالنُّجومِ المُتلألِئةِ في لَيلٍ بَهيم، واليومَ نَراها تَتهاوى كالشُّهُبِ المُحتَرِقةِ، تَخبو أنوارُها وتَتلاشى في ظُلماتِ الواقِعِ الدّامِس. كأنَّ الزَّمانَ في غَدرِهِ وقَسوَتِهِ يَسلُبُ مِنّا أجمَلَ ما نَملِك، ويُجَرّدُنا من أبهى حُلَلِنا، تارِكاً إيّانا عُراةً نُقاسي بَردَ الحَقيقةِ وصَقيعَ الإدراكِ.

في هذا المُستَنقَعِ الآسِنِ مِن الجَهلِ والحَسَدِ، نَجِدُ أنفُسَنا كَسُفُنٍ شَراعِيّةٍ تُحاوِلُ الإبحارَ وسطَ أمواجٍ عاتِيةٍ مِن الضَّغائِنِ والأحقادِ. كُلَّما رَفَعنا شِراعَ الطُّموحِ، هَبَّت علينا رِياحُ الحَسَدِ العاصِفة، وكُلَّما حاوَلنا التَّجديفَ نحوَ شواطِئِ الأحلامِ، جَذَبَتنا تَيّاراتُ الواقِعِ المُرِّ إلى قاعِ بَحرِ اليأسِ والقُنوط.

أواهٍ على تلك الأحلامِ الغَضّةِ التي نُضحّي بها على مَذبَحِ البَقاءِ! كأنّنا نَقتُلُ أطفالَنا الأبرياءَ بأيدينا، ونَدفِنُهُم في تُرابِ النِّسيانِ، لِنُرضِيَ آلِهَةَ المُجتَمَعِ الظالِمَةَ ونَتَّقِيَ شَرَّها. نَسكُبُ دِماءَ آمالِنا على صَخرِ الواقِعِ الأصَمّ، عَلَّ قَلبَهُ يَلينُ أو صَمَمَهُ يَزول، ولكنَّ هيهاتَ لِصَخرٍ أن يَرِقَّ أو لِجَمادٍ أن يَتَعاطَف.

ومع ذلك، يا مَعشَرَ حامِلي المَشاعِلِ، لا تَيأسوا ولا تَهِنوا! فإنَّ في ظُلمَةِ اللَّيلِ الحالِكِ تَكمُنُ بِذرَةُ الفَجرِ الصّادِق، وفي قَلبِ الصَّخرِ الأصَمّ يَنبُضُ يَنبوعُ الحَياةِ. فلنُواصِل حَملَ مَشاعِلِنا، ولو احتَرَقَت أيدينا بلَهيبِها، ولنَستَمِرَّ في زَرعِ بُذورِ أحلامِنا، ولو رَوَيناها بِدَمعِ عُيونِنا ودِماءِ قُلوبِنا. فلَعَلَّ غَداً يأتي بِنَسَماتٍ عَليلَةٍ تُحيي رَمادَ أحلامِنا، وتُشعِلُ فيها جَذوَةَ الحَياةِ مِن جَديد، فتَنهَضَ كالعَنقاءِ مِن رَمادِها، أقوى وأبهى مِمّا كانَت.

كما تَهوي أوراقُ الشجرِ الذابلةُ في خريفِ العُمرِ، وتتساقطُ على صفحاتِ الأرضِ المُغبرَّةِ بعدَ أن كانت زاهيةً خضراءَ تتراقصُ في نسماتِ الصيفِ الرقراقةِ، كذلك تتهاوى الأحلامُ البهيّةُ من سماءِ الخيالِ بعد أن يَطلُعَ فجرُ اليقظةِ ويَسطعَ نورُ الوعيِ في أعماقِ النفسِ المُتلهّفةِ.

تتساقطُ تلك الآمالُ العِذابُ كحبّاتِ اللؤلؤِ من عِقدٍ انفرطَ، وتتبعثرُ على صفحةِ الواقعِ القاسي كأنها نجومٌ هَوَت من السماءِ في ليلةٍ ظلماء. كأنَّ الزمانَ في غَدرِهِ وقسوتِهِ يَسلُبُ من النفسِ أجملَ ما فيها، ويُجرّدُها من أبهى حُلِلِها، تاركاً إياها عاريةً تُقاسي بَردَ الحقيقةِ وصقيعَ الإدراكِ.

وا أسفاه على تلك الأحلامِ التي كانت بالأمسِ القريبِ تُزيّنُ جِنانَ الفؤادِ وتُعطّرُ أرجاءَ الروحِ بشذاها الفوّاحِ، واليومَ تَذوي وتَضمَحِلُّ كما يَضمَحِلُّ السرابُ أمامَ ناظِرِ الظمآنِ في الصحراءِ القاحلةِ. فكأنَّ اليقظةَ في جبروتِها وسطوتِها تَقتحِمُ معاقلَ الخيالِ، وتُحطِّمُ قلاعَ الأوهامِ، وتُبدِّدُ سُحُبَ الأحلامِ الورديةِ بِريحٍ عاتيةٍ من الحقائقِ المُرَّةِ.

(11)

إن الوقت، ذلك السيال الجبار، والانتظار، ذلك الوحش الضاري، لَهُما عَذابٌ أَمَضُّ من سياط النار المُستعرة، وأشدُّ إيلامًا من لهيب الجحيم المُتأجج. فكأنما هما سيفان مسلولان، يقطعان أوصال الروح، ويمزقان نياط القلب.

الوقت، تلك الأفعى الرقطاء، تلتف حول عنق الأيام، تعصرها عصرًا، فتئن الساعات أنينًا، وتصرخ اللحظات صراخًا. والانتظار، ذلك الغول المُفترس، ينهش في لحم الآمال، ويقضم عظام الأحلام، حتى يتركها فتاتًا تذروه رياح اليأس.

إن الوقت والانتظار لَكالرحى، تطحن بين شقيها آمال البشر وتحيلها إلى غبار. وكأنهما بحر لُجِّيٌّ، تتلاطم أمواجه الهوجاء، فتبتلع في أعماقه السحيقة كل ما علق بالنفس من رجاء.

محنة تستنزف الأرواح، وتستنفد القوى! بلاء يذيب الصخر، ويفتت الحديد! إن سياط النار، على ما فيها من ألم وعذاب، لَتغدو نسمةً باردةً إذا ما قورنت بسياط الوقت الحارقة، وكرابيج الانتظار اللاهبة.

فالوقت سيفٌ، والانتظار سندانٌ، وبينهما تُسحق آمال البشر سحقًا. وما من مفرٍ من هذا العذاب الأليم، إلا بالصبر الجميل، والرضا بما قُدِّر وكُتِب. فعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم، وعسى أن يكون في طيات الانتظار المرير، بذور الفرج القريب.

أَلَا يَا لَهْفَ قَلْبِي عَلَى زَمَنٍ وَلَّى وَأَيَّامٍ خَلَتْ! كُنْتُ غُلَامًا يَافِعًا، أَرْنُو إِلَى النُّجُومِ بِعَيْنٍ مُتَلَأْلِئَةٍ، وَقَلْبٍ يَخْفِقُ بِالأَمَلِ وَالطُّمُوحِ كَخَفَقَانِ أَجْنِحَةِ النُّسُورِ. وَإِذْ بِي الْيَوْمَ كَهْلٌ يَرْتَعُ فِي مَرَاعِي الْعُمْرِ الذَّابِلَةِ،

كَغُصْنٍ جَفَّ نَسْغُهُ وَتَسَاقَطَتْ أَوْرَاقُهُ.

أَتُرَى الزَّمَانَ قَدْ جَارَ عَلَيَّ بِسَيْفِهِ الْبَتَّارِ؟ أَمْ أَنَّنِي أَنَا مَنْ نَسِيَ نَفْسَهُ فِي خِضَمِّ صَخَبِ الْحَيَاةِ وَضَجِيجِهَا؟ كَأَنَّنِي سَفِينَةٌ تَاهَتْ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ، تَتَقَاذَفُهَا الأَمْوَاجُ وَتَعْصِفُ بِهَا الرِّيَاحُ.

أُسَائِلُ الدُّنْيَا بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: "أَيْنَ ذَاكَ الْفَتَى اللَّعُوبُ؟ أَيْنَ تِلْكَ الرُّوحُ الْمُفْعَمَةُ بِالْحَيَاةِ وَالنَّشَاطِ؟" فَتُجِيبُنِي بِصَوْتٍ كَالرَّعْدِ الْقَاصِفِ: "ضَاعَ فِي غَيَاهِبِ الْمَشِيبِ! ابْتَلَعَتْهُ أَنْيَابُ الزَّمَنِ الْغَادِرِ، وَطَوَتْهُ صَفَحَاتُ التَّارِيخِ الْمُغْبَرَّةِ."

يَا نَفْسِي الْحَائِرَةَ، مَنْ أَنْتِ الْيَوْمَ؟ وَأَيْنَ ذَاكَ الْمُسْتَقْبَلُ الزَّاهِرُ الَّذِي كُنَّا نَحْلُمُ بِهِ؟ هَلْ كَانَ كُلُّ مَا عِشْنَاهُ مُجَرَّدَ حُلْمٍ عَابِرٍ فِي لَيْلَةٍ صَيْفِيَّةٍ؟ أَمْ أَنَّهُ وَاقِعٌ مَرِيرٌ نَعِيشُهُ بِكُلِّ لَحْظَةٍ وَنَفَسٍ؟

أَتُرَانَا سَنَكُونُ يَوْمًا مَا نَبْتَغِي وَنَرُومُ؟ أَمْ أَنَّ مُرَادَنَا قَدْ غَادَرَ مَحَطَّتَنَا كَالْقِطَارِ الْعَابِرِ، تَارِكًا إِيَّانَا عَلَى الرَّصِيفِ مَعَ الْمُوَدِّعِينَ نُلَوِّحُ بِأَيْدٍ مُرْتَعِشَةٍ وَقُلُوبٍ مُنْكَسِرَةٍ؟

آهٍ! كَمْ تَعِبْتُ مِنَ الرَّكْضِ خَلْفَ سَرَابٍ خَادِعٍ، يَتَرَاءَى لِي فِي الأُفُقِ كَوَاحَةٍ خَضْرَاءَ، ثُمَّ يَتَلَاشَى كَالدُّخَانِ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ! كَأَنَّنِي أُطَارِدُ طَيْفًا لَا يُدْرَكُ، أَوْ أَتَشَبَّثُ بِغَيْمَةٍ عَابِرَةٍ.

هَا أَنَا ذَا وَحِيدٌ فِي دَارٍ غُرْبَةٍ، صَوْتِي كَصَدَى فِي وَادٍ سَحِيقٍ، لَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ وَلَا يُجِيبُ. أَغْفُو عَلَى سَرِيرِي هُنَيْهَةً، مُتَمَنِّيًا الرَّاحَةَ وَالسَّكِينَةَ، فَإِذَا بِي أَسْتَيْقِظُ عَلَى كَابُوسٍ مُرَوِّعٍ، أَصْرُخُ كَالثَّكْلَى.

أَطْلُبُ النَّجْدَةَ بِصَوْتٍ مُتَحَشْرِجٍ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ! فَمَا مِنْ دَوَاءٍ لِهَذَا الأَلَمِ الْمُبَرِّحِ يُسْكِتُ صَرَخَاتِ رُوحِي الْمُعَذَّبَةِ. أُنَاجِي الأَحْلَامَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ: "خَفِّفِي عَنِّي أَحْزَانِي، يَا رَفِيقَةَ الْوَحْدَةِ!" وَلَكِنَّهَا لَا تَنْفَعُ، كَأَنَّهَا أَصَمَّتْ أُذُنَيْهَا عَنْ نِدَائِي.

آهٍ! إِنَّ أَسَايَ لَأَعْمَقُ مِنْ أَنْ تَصِفَهُ الْكَلِمَاتُ، وَأَشَدُّ إِيلَامًا مِنْ أَنْ تُعَبِّرَ عَنْهُ الْعِبَارَاتُ..كَأَنَّهُ بَحْرٌ مِنَ الْحُزْنِ، يَتَلَاطَمُ فِي صَدْرِي، يُغْرِقُنِي فِي أَعْمَاقِهِ السَّحِيقَةِ، وَلَا مِنْ شَاطِئٍ يَلُوحُ فِي الأُفُقِ.

فَيَا أَيُّهَا الزَّمَنُ الْغَادِرُ، هَلْ مِنْ رَجْعَةٍ إِلَى الْوَرَاءِ؟ هَلْ مِنْ سَبِيلٍ لِاسْتِعَادَةِ مَا ضَاعَ مِنْ عُمْرِي وَأَحْلَامِي؟ أَمْ أَنَّنِي مَحْكُومٌ عَلَيَّ بِالْبَقَاءِ فِي هَذَا السِّجْنِ الزَّمَنِيِّ، أَتَجَرَّعُ كَأْسَ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَمِ حَتَّى الثُّمَالَةِ؟

لَعَلَّ الْقَدَرَ يَرْأَفُ بِحَالِي يَوْمًا، وَيُعِيدُ إِلَيَّ بَعْضًا مِنْ بَرِيقِ تِلْكَ الأَيَّامِ الْخَوَالِي. أَوْ لَعَلَّ الْحِكْمَةَ تَأْتِينِي مَعَ الشَّيْبِ، فَأُدْرِكُ أَنَّ جَمَالَ الْحَيَاةِ يَكْمُنُ فِي تَقَلُّبَاتِهَا، وَأَنَّ كُلَّ مَرْحَلَةٍ تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا سِحْرَهَا الْخَاصَّ.

(13)

أَلَا إِنَّ الحُزْنَ إِذَا اعْتَرَانِي وَأَلَمَّ بِفُؤَادِي، تَهَاطَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ قَطَرَاتُ المَطَرِ كَدُمُوعِ الثَّكَالَى، كَأَنَّ الغُيُومَ تُنَادِينِي بِلِسَانِ حَالِهَا قَائِلَةً: "يَا ابْنَ آدَمَ، لَسْتَ وَحْدَكَ مَنْ يَذْرِفُ الدُّمُوعَ فِي هَذَا الكَوْنِ الفَسِيحِ!"

فَيَا لَهَا مِنْ مُوَاسَاةٍ عَظِيمَةٍ تَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ، وَيَا لَهُ مِنْ عَزَاءٍ يَنْهَمِرُ مِنَ الغَمَامِ! كَأَنَّ الطَّبِيعَةَ تُشَارِكُنِي أَحْزَانِي وَتُخَفِّفُ مِنْ آلَامِي، فَتَبْكِي مَعِي وَتَنُوحُ لِنُوَاحِي.

أَتَأَمَّلُ قَطَرَاتِ المَطَرِ المُنْهَمِرَةَ كَأَنَّهَا جَوَاهِرُ تَتَسَاقَطُ مِنْ عُقْدٍ سَمَاوِيٍ، كُلُّ قَطْرَةٍ تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا رِسَالَةً مِنَ الكَوْنِ إِلَى قَلْبِي المَكْلُومِ.

فَأَشْعُرُ كَأَنَّ السَّمَاءَ تُعَانِقُنِي بِذِرَاعَيْنِ مِنْ غَيْمٍ وَمَطَرٍ، وَكَأَنَّ الأَرْضَ تَمْتَصُّ أَحْزَانِي مَعَ كُلِّ قَطْرَةٍ تَتَشَرَّبُهَا. أَتَسَاءَلُ: هَلْ تَبْكِي السَّمَاءُ لِبُكَائِي؟ أَمْ أَبْكِي أَنَا لِبُكَائِهَا؟ أَمْ أَنَّنَا نَتَشَارَكُ الحُزْنَ فِي لَحْظَةٍ كَوْنِيَّةٍ فَرِيدَةٍ؟

كَأَنَّ الغُيُومَ تَحْمِلُ فِي أَحْشَائِهَا كُلَّ دَمْعَةٍ ذَرَفَهَا الحَزَانَى عَبْرَ الأَزْمَانِ، فإذا ثَقُلَتْ بِالأَحْزَانِ، أَفْرَغَتْهَا عَلَى الأَرْضِ الظَّمْأَى. وَكَأَنَّ الرَّعْدَ صَدَى لِصَرَخَاتِ قَلْبِي المُتَأَلِّمِ.وَالبَرْقَ وَمِيضَ الأَمَلِ الَّذِي يَلُوحُ فِي ظُلْمَةِ حُزْنِي.

أَسْتَشْعِرُ وَحْدَةً عَمِيقَةً، وَلَكِنَّ المَطَرَ يُذَكِّرُنِي أَنَّنِي جُزْءٌ مِنْ كُلٍّ أَكْبَرَ، وَأَنَّ حُزْنِي لَيْسَ إِلَّا قَطْرَةً فِي بَحْرِ الوُجُودِ الزَّاخِرِ. فَأَجِدُ فِي هَذِهِ الفِكْرَةِ عَزَاءً وَسَلْوَى، وَأَسْتَشْعِرُ رَابِطًا خَفِيًّا يَرْبِطُنِي بِكُلِّ ذَرَّةٍ فِي هَذَا الكَوْنِ.

كُلَّمَا اشْتَدَّ بِي الحُزْنُ وَثَقُلَتْ عَلَى كَاهِلِي الهُمُومُ، أَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ مُتَرَقِّبًا هَطْلَ المَطَرِ، لِأَجِدَ فِي قَطَرَاتِهِ مُوَاسَاةً وَفِي صَوْتِ هَطْلِهِ هَمْسَاتِ عَزَاءٍ.

فَيَا أَيُّهَا المَطَرُ، يَا رَسُولَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ، يَا مَنْ تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِكَ أَسْرَارَ الكَوْنِ وَأَحْزَانَ البَشَرِ، اهْطِلْ عَلَيَّ وَاغْسِلْ هُمُومِي، وَاحْمِلْ مَعَكَ أَحْزَانِي إِلَى الأَرْضِ، لَعَلَّهَا تَنْبُتُ يَوْمًا أَزْهَارًا تَفُوحُ بِعَبِيرِ الأَمَلِ وَالسَّعَادَةِ.

(14)

أَلَا إِنِّي رَاكِدٌ فِي خِضَمِّ اليَأْسِ كَصَخْرَةٍ صَمَّاءَ، أَتَقَلَّبُ بَيْنَ المَدِّ وَالجَزْرِ تَقَلُّبَ الدَّهْرِ بِأَهْلِهِ، فُؤَادِيَ العَارِي يَتَخَبَّطُ فِي أَمْوَاجِ العَذَابِ اللَّامُتَنَاهِي تَخَبُّطَ الغَرِيقِ!

كَأَنِّي سَفِينَةٌ مُحَطَّمَةٌ فِي بَحْرٍ هَائِجٍ، تَتَقَاذَفُهَا الأَمْوَاجُ كَمَا تَتَقَاذَفُ الرِّيَاحُ أَوْرَاقَ الخَرِيفِ. أَصْرُخُ فِي وَجْهِ القَدَرِ صَرْخَةَ الأَسَدِ الجَرِيحِ، وَلَكِنَّ صَوْتِي يَضِيعُ فِي هَدِيرِ الأَمْوَاجِ.

أَتَسَاءَلُ: هَلْ سَيَأْتِي يَوْمٌ أَرْسُو فِيهِ عَلَى شَاطِئِ الأَمَانِ؟ أَمْ أَنَّ مَصِيرِي أَنْ أَظَلَّ هَائِمًا فِي هَذَا البَحْرِ المُظْلِمِ إِلَى الأَبَدِ؟

كَأَنَّ الحَيَاةَ قَدْ نَصَبَتْ لِي فِخَاخًا مِنْ حَبَائِلِ الحُزْنِ، فَأَنَا أَتَعَثَّرُ بِهَا كَمَا يَتَعَثَّرُ الأَعْمَى فِي دَرْبٍ وَعِرٍ. أَحَاوِلُ أَنْ أَتَشَبَّثَ بِأَيِّ أَمَلٍ، وَلَوْ كَانَ خَيْطًا رَفِيعًا كَخَيْطِ العَنْكَبُوتِ.

لَكِنَّ اليَأْسَ يَجْثُمُ عَلَى صَدْرِي كَجَبَلٍ مِنَ الصَّخْرِ، يَكَادُ يَسْحَقُ أَضْلُعِي وَيُخْرِجُ الأَنْفَاسَ مِنْ جَوْفِي. أَشْعُرُ كَأَنَّ الزَّمَنَ قَدْ تَوَقَّفَ، وَأَنَا عَالِقٌ فِي لَحْظَةٍ أَبَدِيَّةٍ مِنَ الأَلَمِ.

أُحَدِّقُ فِي الأُفُقِ البَعِيدِ، عَلَّنِي أَرَى بَصِيصَ أَمَلٍ، وَلَكِنَّ عَيْنَيَّ لَا تَرَيَانِ إِلَّا ظَلَامًا دَامِسًا كَظَلَامِ القَبْرِ. أَمُدُّ يَدِي لِأَلْتَقِطَ أَيَّ شُعَاعٍ مِنْ نُورٍ، فَلَا أَجِدُ إِلَّا سَرَابًا خَادِعًا.

كَأَنَّ قَلْبِي قَدْ تَحَوَّلَ إِلَى صَحْرَاءَ قَاحِلَةٍ، لَا يَنْبُتُ فِيهَا إِلَّا شَوْكُ الأَحْزَانِ. وَكَأَنَّ رُوحِي قَدْ أَصْبَحَتْ كَهْفًا مُظْلِمًا، تَتَرَدَّدُ فِيهِ أَصْدَاءُ الأَنِينِ. أَتَسَاءَلُ: هَلْ سَيَأْتِي يَوْمٌ تَشْرُقُ فِيهِ شَمْسُ السَّعَادَةِ مِنْ جَدِيدٍ؟ أَمْ أَنَّ القَدَرَ قَدْ كَتَبَ عَلَيَّ أَنْ أَظَلَّ غَرِيقًا فِي بَحْرِ الأَحْزَانِ؟

وَلَكِنْ، رُغْمَ كُلِّ هَذَا اليَأْسِ، أَجِدُ فِي أَعْمَاقِي بَقِيَّةً مِنْ عَزِيمَةٍ، كَشُعْلَةٍ صَغِيرَةٍ تُقَاوِمُ رِيَاحَ اليَأْسِ العَاتِيَةَ. فَأَقُولُ لِنَفْسِي: لَعَلَّ بَعْدَ هَذَا اللَّيْلِ الطَّوِيلِ فَجْرًا جَدِيدًا، ولَعَلَّ بَعْدَ هَذِهِ العَاصِفَةِ الهَوْجَاءِ سَكِينَةً وَهُدُوءًا.

(15)

أَلَا إِنَّ اللَّيْلَ قَدْ أَعْيَا وَكَلَّ، وَهَا أَنَا ذَا فِي مَرْمَاهُ وَحِيدٌ كَالطَّوْدِ الشَّامِخِ. يَرْنُو إِلَيَّ بِعَيْنَيْنِ كَجَوْفِ الظَّلَامِ، وَيَشُدُّنِي بِأَسْرَارِهِ الفَتَّاكَةِ شَدَّ الأَسِيرِ. يَخْتَلِسُ مِنِّي حُلْمِي اخْتِلَاسَ الذِّئْبِ لِلشَّاةِ، وَيُلْقِي بِي فِي خِضَمِّ أَحْزَانِي إِلْقَاءَ النُّوتِيِّ لِلمِرْسَاةِ.

أَتَسَاءَلُ فِي نَفْسِي: مَتَى يَنْقَضِي هَذَا العَذَابُ انْقِضَاضَ السَّيْفِ عَلَى العُنُقِ؟ أَتَمَنَّى أَنْ يَغْشَانِي النَّوْمُ كَمَا تَغْشَى الظُّلْمَةُ وَجْهَ الأَرْضِ، وَلَكِنَّ الكَرَى يَفِرُّ مِنِّي فِرَارَ الظِّبَاءِ مِنَ الأَسَدِ.

فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، تَتَدَافَعُ الذِّكْرَيَاتُ كَتَدَافُعِ الأَمْوَاجِ فِي البَحْرِ الهَائِجِ. أَسْتَذْكِرُ كُلَّ مَوْقِفٍ ذَرَفَ فِيهِ قَلْبِي الدُّمُوعَ ذَرْفَ السَّحَابِ لِلمَطَرِ، كُلَّ مَشْهَدٍ أَبْكَانِي بُكَاءَ الثَّكْلَى، وَكُلَّ إِنْسَانٍ غَيَّرَ مَجْرَى حَيَاتِي تَغْيِيرَ الزَّلْزَالِ لِوَجْهِ الأَرْضِ.

مِنَ النَّوَافِذِ الدَّافِئَةِ، أُطِلُّ عَلَى أَزِقَّةِ المَدِينَةِ إِطْلَالَةَ النَّسْرِ مِنْ شَاهِقِ الجِبَالِ، فَأَرَى أَشْبَاحًا مِنْ مَاضٍ أَلِيمٍ تَتَرَاءَى لِي كَمَا تَتَرَاءَى السَّرَابَاتُ فِي الصَّحْرَاءِ. أَفْكَارٌ تَنْدَحِرُ فِي أَعْمَاقِي انْدِحَارَ الصَّخْرَةِ مِنْ قِمَّةِ الجَبَلِ، وأَحْزَانٌ تَتَبَدَّدُ فِي سَمَاوَاتٍ مُلَبَّدَةٍ بِالغُيُومِ تَبَدُّدَ الدُّخَانِ فِي الهَوَاءِ.

كَأَنَّ اللَّيْلَ صَارَ لِي رَفِيقًا، يُسَامِرُنِي بِحَدِيثِ الهَمِّ وَالأَسَى. يَمُدُّ أَذْرُعَهُ السَّوْدَاءَ لِيَحْتَضِنَنِي احْتِضَانَ الأُمِّ لِطِفْلِهَا الحَزِينِ. وَلَكِنَّ عِنَاقَهُ لَيْسَ إِلَّا سِجْنًا يَخْنُقُ أَنْفَاسِي وَيُثْقِلُ صَدْرِي.

أَتَأَمَّلُ النُّجُومَ المُتَلَأْلِئَةَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ، كَأَنَّهَا عُيُونٌ تَرْمُقُنِي بِشَفَقَةٍ. أَسْأَلُهَا: هَلْ مِنْ سَبِيلٍ لِلنَّجَاةِ مِنْ هَذَا اللَّيْلِ الطَّوِيلِ؟ فَتَرُدُّ عَلَيَّ بِصَمْتٍ يَشُقُّ القَلْبَ كَمَا يَشُقُّ السَّيْفُ الصَّخْرَ.

أُحَاوِلُ أَنْ أَسْتَجْمِعَ شَتَاتَ نَفْسِي، كَمَا يَسْتَجْمِعُ الرَّاعِي قَطِيعَهُ المُتَفَرِّقَ. أُحَاوِلُ أَنْ أَسْتَلَّ مِنْ ذَاكِرَتِي ذِكْرَى جَمِيلَةً، لَعَلَّهَا تُؤْنِسُ وَحْشَتِي. وَلَكِنَّ الذِّكْرَيَاتِ السَّعِيدَةَ تَهْرُبُ مِنِّي هُرُوبَ المَاءِ مِنْ بَيْنِ الأَصَابِعِ.

أَتَسَاءَلُ: هَلْ سَيَأْتِي الفَجْرُ يَوْمًا لِيُبَدِّدَ هَذَا الظَّلَامَ؟ هَلْ سَتَشْرُقُ الشَّمْسُ مِنْ جَدِيدٍ لِتُدْفِئَ قَلْبِي المُتَجَمِّدَ؟ أَمْ أَنَّ اللَّيْلَ قَدْ قَرَّرَ أَنْ يَتَّخِذَنِي مَسْكَنًا أَبَدِيًّا لَهُ؟

وَإِذْ أَنَا كَذَلِكَ، إِذْ بِي أَسْمَعُ صَوْتَ دِيكٍ يَصِيحُ فِي البُعْدِ. كَأَنَّهُ يُبَشِّرُنِي بِقُدُومِ الفَجْرِ، وَيَهْمِسُ فِي أُذُنِي: اصْبِرْ، فَإِنَّ بَعْدَ العُسْرِ يُسْرًا، وَبَعْدَ الظَّلَامِ نُورًا.

فَأَسْتَجْمِعُ قُوَايَ، وَأَنْفُضُ عَنِّي غُبَارَ اليَأْسِ، وَأَقُولُ لِنَفْسِي: لَعَلَّ غَدًا يَكُونُ أَفْضَلَ، وَلَعَلَّ الشَّمْسَ سَتُشْرِقُ مِنْ جَدِيدٍ لِتُضِيءَ دُرُوبَ حَيَاتِي.

أَلَا إِنَّ المَنِيَّةَ جَائِعَةٌ لَا تَشْبَعُ، وَنَهِمَةٌ لَا تَرْتَوِي، تَفْتَرِسُ القُلُوبَ كَمَا يَفْتَرِسُ الذِّئْبُ الفَرِيسَةَ، وَتَلْتَهِمُ الأَرْوَاحَ كَمَا تَلْتَهِمُ النَّارُ الهَشِيمَ. إِنَّهَا لَكَالوَحْشِ الضَّارِي، يَتَرَبَّصُ بِالمَوَدَّةِ وَالمَحَبَّةِ، يَنْقَضُّ عَلَيْهَا انْقِضَاضَ الصَّقْرِ عَلَى فَرِيسَتِهِ، فَيُمَزِّقُهَا إِرْبًا إِرْبًا، وَيُحِيلُهَا إِلَى أَشْلَاءٍ مُتَنَاثِرَةٍ.

تَرَى المَوْتَ يَجُوبُ الأَرْضَ كَالرِّيحِ العَاصِفَةِ، يَحْصِدُ الأَرْوَاحَ حَصْدَ المِنْجَلِ لِلزَّرْعِ، وَيَقْطِفُ الأَحِبَّةَ قَطْفَ الثِّمَارِ النَّاضِجَةِ. كَأَنَّهُ سَيْلٌ جَارِفٌ، يَجْتَاحُ كُلَّ مَا يَعْتَرِضُ طَرِيقَهُ، لَا يُبْقِي وَلَا يَذَرُ، يَأْخُذُ الصَّغِيرَ وَالكَبِيرَ، وَالقَوِيَّ وَالضَّعِيفَ، وَالغَنِيَّ وَالفَقِيرَ. وَمَا إِنْ يَمُرَّ المَوْتُ بِمَكَانٍ، حَتَّى يُخَلِّفَ وَرَاءَهُ الأَلَمَ، كَأَنَّهُ زَرَعَ شَوْكًا فِي الأَرْضِ بَدَلَ الوَرْدِ، وَنَثَرَ الظُّلْمَةَ فِي السَّمَاءِ بَدَلَ النُّجُومِ.

فَتَرَى العُيُونَ تَذْرِفُ الدُّمُوعَ كَأَنَّهَا سَحَائِبُ مُثْقَلَةٌ، وَتَسْمَعُ الأَنِينَ يَتَصَاعَدُ كَأَنَّهُ زَفِيرُ الرِّيَاحِ فِي لَيْلَةٍ عَاصِفَةٍ، وَتَشْهَدُ القُلُوبَ تَتَمَزَّقُ كَأَنَّهَا أَشْرِعَةٌ فِي مَهَبِّ الرِّيَاحِ. هَلْ لِهَذَا الجُوعِ مِنْ نِهَايَةٍ؟ أَمْ أَنَّ المَوْتَ سَيَظَلُّ يَلْتَهِمُ المَحَبَّةَ حَتَّى آخِرِ الزَّمَانِ؟ كَأَنَّ الحَيَاةَ مَأْدُبَةٌ لِلمَوْتِ، يَتَنَقَّلُ بَيْنَ مَوَائِدِهَا، يَخْطَفُ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ، وَلَا يَتْرُكُ إِلَّا الفُتَاتَ. وَكَأَنَّ الأَحِبَّةَ طَيْرٌ يُحَلِّقُ فِي سَمَاءِ السَّعَادَةِ،وَالمَوْتُ صَيَّادٌ مَاهِرٌ، يَصْطَادُهُمْ وَاحِدًا تِلْوَ الآخَرِ، فَيَسْقُطُونَ كَأَوْرَاقِ الخَرِيفِ، تَذْرُوهُمُ الرِّيَاحُ. فَيَا أَيُّهَا المَوْتُ، أَلَا تَشْبَعُ مِنْ هَذَا الصَّيْدِ؟ أَلَا تَكْتَفِي بِمَا أَخَذْتَ مِنَ الأَرْوَاحِ وَالقُلُوبِ؟ وَيَا أَيَّتُهَا المَحَبَّةُ، أَلَا تَقْوِينَ عَلَى مُقَاوَمَةِ هَذَا الوَحْشِ الضَّارِي؟ أَلَا تَصْمُدِينَ فِي وَجْهِ هَذَا الطُّوفَانِ الجَارِفِ؟ لَعَلَّ فِي الحُبِّ قُوَّةً تَهْزِمُ المَوْتَ، وَفِي الذِّكْرَى عَزَاءً يُخَفِّفُ الأَلَمَ، وَفِي الصَّبْرِ سَلْوَى تُدَاوِي جِرَاحَ القَلْبِ المَكْلُومِ. فَإِنَّ المَحَبَّةَ أَقْوَى مِنَ المَوْتِ، وَالذِّكْرَى أَبْقَى مِنَ الفَنَاءِ، وَإِنَّ الحَيَاةَ، رَغْمَ قَسْوَتِهَا، تَظَلُّ أَجْمَلَ مِنَ العَدَمِ.

أَلَا إِنَّ فُؤَادِي لَكَالطَّوْدِ الشَّامِخِ الَّذِي أَثْقَلَتْهُ الهُمُومُ، وَكَالبَحْرِ الزَّاخِرِ الَّذِي تَلَاطَمَتْ أَمْوَاجُهُ بِالأَحْزَانِ، وكَالصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ الَّتِي نَحَتَتْهَا رِيَاحُ الأَسَى. قَلْبِي كَئِيبٌ كَشَجَرَةٍ عَتِيقَةٍ عَرَكَتْهَا الأَيَّامُ، تَقِفُ شَامِخَةً فِي وَجْهِ الرِّيَاحِ العَاتِيَةِ، وَلَكِنَّهَا تَنْحَنِي الآنَ بِصَمْتٍ، كَأَنَّهَا تَنُوءُ بِحِمْلٍ ثَقِيلٍ.

يُطْوَى هَذَا القَلْبُ كَمَا تُطْوَى صَحِيفَةُ الأَيَّامِ، دُونَ أَنْ يَسْتَوْعِبَ الخَرِيفَ المُبَكِّرَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُهُ، كَمَا يَسْتَهْلِكُ اللَّهِيبُ الحَطَبَ الجَافَّ. كَيْفَ لِهَذَا القَلْبِ أَنْ يَصْمُدَ، وَقَدْ أَتَاهُ الخَرِيفُ قَبْلَ أَوَانِهِ، يَنْثُرُ أَوْرَاقَ الأَمَلِ، وَيُعَرِّي أَغْصَانَ الفَرَحِ؟ كَأَنَّ الزَّمَانَ قَدْ غَدَرَ بِهِ، وَالأَيَّامَ قَدْ خَانَتْهُ، فَأَضْحَى كَالغَرِيبِ فِي وَطَنِهِ، وَالظَّمْآنِ عَلَى ضِفَافِ النَّهْرِ.

يَا لَهُ مِنْ خَرِيفٍ قَاسٍ، يَأْتِي قَبْلَ أَنْ تَنْضَجَ ثِمَارُ الصَّيْفِ، وَقَبْلَ أَنْ تَكْتَمِلَ دَوْرَةُ الحَيَاةِ، فَيُسْقِطُ الأَوْرَاقَ الخَضْرَاءَ قَبْلَ أَنْ تَصْفَرَّ. إِنَّ قَلْبِي لَيَئِنُّ كَمَا تَئِنُّ النَّاقَةُ الثَّكْلَى، وَيَنُوحُ كَمَا يَنُوحُ الحَمَامُ الفَاقِدُ أَلِيفَهُ، وَيَبْكِي كَمَا تَبْكِي السَّحَابَةُ الثَّقَالُ. فَيَا أَيُّهَا الخَرِيفُ المُبَكِّرُ، أَلَا تَرْفَقُ بِقَلْبٍ مُثْقَلٍ بِالهُمُومِ؟ أَلَا تُبْقِي لَهُ بَعْضَ الأَوْرَاقِ الخَضْرَاءِ لِيَتَعَلَّقَ بِهَا؟ ويَا أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ المُعَمَّرَةُ، أَلَا تَصْمُدِينَ فِي وَجْهِ الرِّيَاحِ؟

أَلَا تُقَاوِمِينَ هَذَا الذُّبُولَ الَّذِي يَسْرِي فِي عُرُوقِكِ؟

لَعَلَّ الرَّبِيعَ يَأْتِي بَعْدَ هَذَا الخَرِيفِ القَاسِي، فَيُعِيدُ لِلْقَلْبِ نَبْضَهُ، وَلِلشَّجَرَةِ خُضْرَتَهَا، وَلِلْحَيَاةِ بَهْجَتَهَا وَرَوْنَقَهَا. فَإِنَّ بَعْدَ العُسْرِ يُسْرًا، وَبَعْدَ الظُّلْمَةِ نُورًا، وَبَعْدَ الجَدْبِ خِصْبًا، وَبَعْدَ الحُزْنِ فَرَحًا. فَاصْبِرْ أَيُّهَا القَلْبُ الكَئِيبُ، وَاصْمُدِي أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ المُعَمَّرَةُ، فَإِنَّ غَدًا لَنَاظِرِهِ قَرِيبٌ، وَإِنَّ مَعَ الصَّبْرِ نَصْرًا.

إنَّ هَذِهِ الكَلِمَاتِ الَّتِي أَخُطُّهَا بِيَمِينِي، وَأَنْقُشُهَا بِدَمِ فُؤَادِي، لنْ تُعِيدَكَ إِلَيَّ كَمَا لَا يُعِيدُ الظَّمْآنُ مَاءً قَدْ أُرِيقَ عَلَى الرَّمْضَاءِ..وَلَكِنَّهَا رِسَالَةٌ تَتَخَطَّى حُدُودَ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ، كَأَنَّهَا بَرْقٌ يَشُقُّ عَنَانَ السَّمَاءِ، أَوْ نَجْمٌ يَهْدِي الحَيَارَى فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ البَهِيمِ. تَنْظُرُ فِيهَا عَيْنَايَ إِلَى رُوحِكَ المَخْبُوءَةِ خَلْفَ سُتُورِ الغَيْبِ، كَمَا يَنْظُرُ الصَّيَّادُ إِلَى الغَزَالِ النَّافِرِ فِي أَعْمَاقِ الغَابَةِ الكَثِيفَةِ. وَرُوحِي تُنَادِي عَلَى رُوحِكَ النَّبِيلَةِ، كَمَا يُنَادِي الحَمَامُ حَبِيبَهُ فِي سَاعَاتِ الفَجْرِ الأُولَى. أَلَا فَاعْلَمْ، يَا مَنْ غِبْتَ عَنْ نَاظِرِي وَلَمْ تَغِبْ عَنْ خَاطِرِي، أَنَّنِي سَأَظَلُّ هُنَا ثَابِتًا كَالطَّوْدِ الشَّامِخِ،

لَا تُزَحْزِحُنِي عَوَاصِفُ الزَّمَانِ، وَلَا تُزِيلُنِي صُرُوفُ الدَّهْرِ. بَلْ سَأَبْقَى عَلَى اتِّصَالٍ بِرُوحِكَ الطَّاهِرَةِ، كَاتِّصَالِ النَّهْرِ بِالبَحْرِ، وَالشَّمْسِ بِالقَمَرِ. وَذِكْرَيَاتُنَا الجَمِيلَةُ سَتَظَلُّ مَحْفُورَةً فِي صَدْرِي، كَمَا تُحْفَرُ النُّقُوشُ عَلَى الصَّخْرِ الصَّلْدِ. فَكُلَّمَا هَبَّتْ نَسَمَاتُ الصَّبَاحِ، سَمِعْتُ صَوْتَكَ يُنَاغِي أُذُنِي، وَكُلَّمَا لَاحَ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ، رَأَيْتُ بَرِيقَ عَيْنَيْكَ يُنَاجِي نَاظِرِي. وَإِنْ مَرَرْتُ بِرَوْضَةٍ غَنَّاءَ، شَمَمْتُ عَبِيرَكَ يَفُوحُ مِنْ بَيْنِ الأَزْهَارِ، وَإِنْ سَمِعْتُ خَرِيرَ المَاءِ، تَذَكَّرْتُ عَذْبَ حَدِيثِكَ وَرَقِيقَ كَلَامِكَ. فَأَنْتَ يَا صَاحِبِي، كَالنَّقْشِ فِي الحَجَرِ، وَكَالوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَدِ، لا يَمْحُوكَ زَمَانٌ، وَلَا يُغَيِّرُكَ مَكَانٌ. وَإِنِّي لَأَعْلَمُ عِلْمَ اليَقِينِ، أَنَّ الفِرَاقَ وَإِنْ طَالَ، فَإِنَّ اللِّقَاءَ آتٍ كَمَا يَأْتِي الصُّبْحُ بَعْدَ اللَّيْلِ الطَّوِيلِ. فَاطْمَئِنَّ يَا رَفِيقَ دَرْبِي، وَيَا أَنِيسَ وَحْدَتِي، فَإِنَّ ذِكْرَاكَ فِي قَلْبِي كَالنَّقْشِ فِي الحَجَرِ، وَحُبَّكَ فِي فُؤَادِي كَالمَاءِ فِي جَوْفِ الصَّدَفِ، لَا يَنْضُبُ وَلَا يَجِفُّ، بَلْ يَزْدَادُ صَفَاءً وَنَقَاءً مَعَ مُرُورِ الأَيَّامِ.

أَلَا إِنِّي أَرَى السَّحَابَ يَتَرَاكَمُ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ تَحْتَ لَهِيبِ شَمْسٍ حَارِقَةٍ كَأَنَّهَا جَمْرَةُ الغَضَا يَتَهَاطَلُ الغَيْثُ كَأَفْوَاهِ القِرَبِ، يَسْقِي الثَّرَى وَيُخْفِي فِي طَيَّاتِهِ دُرَرَ السَّمَاءِ وَيَوَاقِيتَهَا وَإِذْ بِالرِّيَاحِ تَعْصِفُ عَاتِيَةً كَأَنَّهَا زَئِيرُ الأُسُودِ تَمْحُو بِسَطْوَتِهَا حُجُبَ الغَمَامِ وَتُبَدِّدُ ظُلْمَتَهُ فَيَنْجَلِي الأُفُقُ وَتَتَّسِعُ الأَرْضُ كَبَسَاطٍ مُمْتَدٍّ وَيَنْشَرِحُ صَدْرِي لِنَسَمَاتِ البَسْمَةِ كَانْشِرَاحِ الصَّحْرَاءِ.

هَكَذَا الدُّنْيَا تَقَلُّبَاتٌ وَتَحَوُّلَاتٌ كَدَوْرَانِ الفَلَكِ تَتَعَاقَبُ كَتَعَاقُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لَا تَنْفَكُّ وَلَا تَنْقَطِعُ وَمَا بِأَيْدِينَا إِلَّا أَنْ نَمْضِيَ قُدُمًا كَالسَّهْمِ الَّذِي انْطَلَقَ مِنْ قَوْسِهِ نَغْتَنِمُ مَا تَجُودُ بِهِ الأَيَّامُ مِنْ نِعَمٍ كَاغْتِنَامِ الظَّمْآنِ لِلْمَاءِ ثُمَّ نَتَقَبَّلُ مَا تَحْمِلُهُ لَنَا مِنْ مِحَنٍ بِصَبْرٍ كَصَبْرِ الجِبَالِ الرَّوَاسِي.

أَلَا إِنَّ الحَيَاةَ كَقَصِيدَةٍ تَتَوَالَى أَبْيَاتُهَا، فِيهَا المَدِيحُ وَالرِّثَاءُ، وَالفَخْرُ وَالهِجَاءُ، تَارَةً تَعْزِفُ أَلْحَانَ الفَرَحِ كَالنَّايِ الشَّجِيِّ، وَتَارَةً تَنُوحُ بِأَنِينِ الحُزْنِ كَالرَّبَابَةِ الحَزِينَةِ.

أضحت ألحان الفراق وأنغام النوى تترنم في أرجاء فؤادي الكليم، فغدت لغة الغياب هي اللسان الذي يفصح به قلبي المكلوم. تلك الأصداء الشجية التي تتردد في دهاليز الروح، كأنها قصائد الرثاء تُنشد في مآتم الوصال.

وا أسفاه على زمانٍ ولّى، حين كانت نبضات القلب تعزف سيمفونية الحب والقرب، فإذا بها اليوم تئن أنين الثكلى، وتنوح نواح الخنساء على صخر. كأن الدهر قد صبّ جام غضبه على وتر الوصل، فانقطع وأضحى شجوًا يتغنى به الفؤاد المفجوع.

هيهات هيهات أن تعود تلك الأيام الخوالي، حين كانت الروح تحلق في سماء القرب، وإذا بها الآن تهوي في وديان البعاد، تجرّ أذيال الخيبة والحسرة. فيا لها من مفارقة مريرة، أن يصير الحضور غيابًا، والوصل هجرًا، والقرب بعدًا.

أيا قلبي المسكين، كم من الزمان ستظل تردد هذه الألحان الحزينة؟ وكم ستبقى تعزف على أوتار الفراق؟ أما آن لك أن تنفض عنك غبار الماضي، وتنهض من رماد الذكريات كطائر الفينيق؟

لكن هيهات، استوطن الغياب ربوع الفؤاد، وشيّد فيه قصورًا من الحزن والأسى. فأنّى للقلب أن يتحرر من أسر هذه النغمات الشجية، وقد غدت جزءًا من كيانه، يتنفسها مع كل شهيق، ويزفرها مع كل زفير؟

أقف على أطلال الذكريات، أستنشق عبق الماضي، وأتلمس آثار من رحلوا. هل سيأتي يومٌ تخرس فيه هذه النغمات، وتعود ألحان الوصال تصدح في ربوع الفؤاد؟ أم أن القدر كتب على هذا القلب أن يظل أسيرًا لموسيقى الغياب، يرددها حتى يلقى حتفه؟

أَلا يا رَمادَ الأَحلامِ المُتناثِرِ، وَيا بَقايا الآمالِ المُتَكَسِّرَةِ، انثُرْ حُزني الدَّفينَ فَوقَ صَفحَةِ الأَرضِ الجَدباءِ، وَذَرِّهِ عَلى ثَرى الوُجودِ القاحِلِ، حَتّى تُعلِنَ السَّماءُ حِدادَها الأَبَدِيَّ عَلى فُقداني المُرِّ!

أَيُّها الأَسى المُتَجَذِّرُ في أَعماقِ الفُؤادِ، تَدَفَّقْ كَالسَّيلِ الجارِفِ، وَاغمُرْ بِطوفانِكَ سُهولَ الحَياةِ وَوِهادَها. لِتَنتَحِبْ الرِّياحُ بِعَويلِها الشَّجِيِّ، وَلتَبكِ الغُيومُ دَمعاً هَتّاناً، فَقَد غابَ نَجمُ السَّعادَةِ في أُفُقِ الرُّوحِ المُظلِمِ.

يا لَوعَةَ القَلبِ المَكلومِ، اصرُخي بِصَوتٍ يَشُقُّ عَنانَ السَّماءِ، وَيُزَلزِلُ أَركانَ الأَرضِ. لِتَسمَعْ الكائِناتُ أَنينَ فُؤادي المَحطومِ، وَلتَشهَدْ عَلى مَأساةِ رُوحي المَسلوبَةِ.

أَيُّها الحُزنُ العَميقُ، كُنْ كَالبَحرِ الهائِجِ، تَتَلاطَمُ أَمواجُكَ في صَدري، وَتَضرِبُ شَواطِئَ وُجودي بِعُنفٍ لا يَرحَمُ. اِجعَلْ مِن دُموعي نَهراً جارِياً، يَروي ظَمَأَ الأَرضِ العَطشى، وَيُغَذّي جُذورَ الأَشجارِ الذّابِلَةِ.

يا أَيُّها الفَقدُ المُوجِعُ، كُنْ كَالجَبَلِ الشّامِخِ، ثابِتاً راسِخاً في كِياني، شاهِداً عَلى عَظَمَةِ ما فَقَدتُ. لِتَنحَتْ رِياحُ الزَّمَنِ عَلى صَخرِكَ الصَّلدِ قِصَّةَ حُزني الأَبَدِيِّ، فَتَقرَأَها الأَجيالُ القادِمَةُ، وَتَعرِفَ عُمقَ مَأساتي.

أَيُّها اللَّيلُ الحالِكُ، اِبسُطْ جَناحَيكَ السَّوداوَينِ عَلى عالَمي المُنهارِ، وَاحجُبْ عَنّي نورَ الشَّمسِ الكاذِبَ. دَعْ ظُلمَتَكَ تَغمُرُ وُجودي، فَقَد انطَفَأَت شُموعُ الأَمَلِ في مَحرابِ قَلبي المُظلِمِ.

يا صَدى الذِّكرياتِ الحَزينَةِ، تَرَدَّدْ في أَروِقَةِ الزَّمَنِ، وَانشُرْ لَحنَ حُزني في أَرجاءِ الكَونِ. لِيَسمَعَ النَّسيمُ أُغنِيَةَ وَجَعي، وَيَحمِلَها إِلى أَقاصي الأَرضِ، فَتَعرِفَ الدُّنيا قِصَّةَ قَلبٍ تَحَطَّمَ عَلى صَخرَةِ الفِراقِ.

أَيُّها الوَجَعُ المُقيمُ في أَعماقي، كُنْ كَالنّارِ المُستَعِرَةِ، تَلتَهِمُ ما تَبَقّى مِن آمالي وَأَحلامي. أَحرِقْ بِلَهيبِكَ الحارِقِ كُلَّ ذِكرى جَميلَةٍ، وَاترُكْ خَلفَكَ رَماداً يَشهَدُ عَلى عَظَمَةِ ما كانَ وَما انتَهى.

فَيا رَمادَ الأَحلامِ، انثُرْ حُزني فَوقَ سَطحِ الأَرضِ، وَذَرِّهُ في الرِّياحِ العاتِيَةِ. لِتَحمِلَهُ السَّحابُ إِلى أَقاصي السَّماءِ، وَلتُمطِرهُ الغُيومُ دَمعاً وَأَنيناً. فَقَد آنَ الأَوانُ لِتُعلِنَ السَّماءُ حِدادَها الأَبَدِيَّ عَلى فُقداني العَظيمِ، وَلِتَشهَدَ الكائِناتُ عَلى مَأساةِ رُوحٍ هَوَت مِن عَلياءِ السَّعادَةِ إِلى قاعِ الحُزنِ السَّحيقِ.

تَجَلَّى لي في غِمارِ تَجارِبِ الحَياةِ وَخِضَمِّ أَحْداثِها، أَنَّ النُّضْجَ لَيْسَ رَهينَ السِّنينَ الَّتي تَمُرُّ كَسَحابَةٍ عابِرَةٍ، بَلْ هُوَ كامِنٌ في عَتَباتِ الرُّوحِ الَّتي تَسْتَمِرُّ في النُّمُوِّ كَشَجَرَةٍ باسِقَةٍ، تَتَعَلَّمُ مِنْ كُلِّ نَسْمَةٍ تُداعِبُ أَغْصانَها، وَتَبْزُغُ بَيْنَ الأَمْواجِ العاتِيَةِ كَصَخْرَةٍ شامِخَةٍ لا تَلينُ.

إِنَّ النُّضْجَ الحَقيقِيَّ لَهُوَ ذَلِكَ الجَوْهَرُ الَّذي يَتَبَلْوَرُ في أَعْماقِ النَّفْسِ، كَاللُّؤْلُؤَةِ في قَرارَةِ المُحيطِ. يَتَشَكَّلُ بِبُطْءٍ وَصَبْرٍ، مُتَحَدِّياً قَسْوَةَ الظُّروفِ وَعَنَفَ التَّيَّاراتِ. إِنَّهُ ذَلِكَ النُّورُ الَّذي يَشُعُّ مِنْ دَواخِلِنا، مُنيراً دُروبَ الحَياةِ المُعْتِمَةَ، وَمُرْشِداً لَنا في مَتاهاتِ الوُجودِ.

أَدْرَكْتُ أَنَّ النُّضْجَ يَتَجَلَّى في قُدْرَةِ المَرْءِ عَلى الوُقوفِ صامِداً أَمامَ عَواصِفِ الدَّهْرِ، كَالطَّوْدِ الأَشَمِّ. يَتَجَلَّى في حِكْمَةٍ تَنْبُعُ مِنَ القَلْبِ، تُهَذِّبُ الأَفْعالَ وَتُنَقِّي الأَقْوالَ. إِنَّهُ ذَلِكَ الصَّقْلُ الَّذي يُضْفيهِ الزَّمَنُ عَلى مَعْدِنِ الرُّوحِ، فَيَجْعَلُها تَتَلَأْلَأُ كَالماسِ في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ.

النُّضْجُ هُوَ أَنْ تَتَعَلَّمَ مِنْ كُلِّ تَجْرِبَةٍ، وَأَنْ تَسْتَخْلِصَ الحِكْمَةَ مِنْ كُلِّ خَطَإٍ. هُوَ أَنْ تَرى الجَمالَ في وَسَطِ القَبْحِ، وَأَنْ تَجِدَ الأَمَلَ في قَلْبِ اليَأْسِ. إِنَّهُ القُدْرَةُ عَلى الارْتِقاءِ فَوْقَ صِغائِرِ الأُمورِ، وَالتَّحَلّي بِالصَّبْرِ في مُواجَهَةِ المِحَنِ.

كَمْ مِنْ شَيْخٍ طاعِنٍ في السِّنِّ، لَمْ يَذُقْ طَعْمَ النُّضْجِ الحَقيقِيِّ، وَكَمْ مِنْ فَتىً يافِعٍ، حَمَلَ في قَلْبِهِ حِكْمَةَ الدُّهورِ! فَالنُّضْجُ لا يُقاسُ بِعَدَدِ السِّنينَ، بَلْ بِعُمْقِ التَّجارِبِ وَسَعَةِ الإِدْراكِ وَرَحابَةِ الصَّدْرِ.

إِنَّ الرُّوحَ النَّاضِجَةَ كَالنَّهْرِ الَّذي يَشُقُّ طَريقَهُ عَبْرَ الصُّخورِ وَالوِهادِ، مُتَغَلِّباً عَلى كُلِّ العَقَباتِ، حَتَّى يَصِلَ إِلى غايَتِهِ. هِيَ كَالشَّمْسِ الَّتي تُشْرِقُ كُلَّ يَوْمٍ، مُبَدِّدَةً ظَلامَ اللَّيْلِ، وَباعِثَةً الدِّفْءَ وَالحَياةَ في الكائِناتِ.

وَالآنَ، وَقَدْ تَجَرَّعْنا كَأْسَ الأَلَمِ حَتَّى الثُّمالَةِ، نَحْنُ هُنا وَحيدونَ كَأَطْلالٍ في صَحْراءَ قاحِلَةٍ، نَنْتَظِرُ أَشْياءً غَدَتْ كَالسَّرابِ، لا وُجودَ لَها إِلَّا في خَيالاتِنا المُعَذَّبَةِ. نَغْفو عَلى فِراشٍ مِنْ ذِكْرياتٍ باتَتْ كَأَوْراقٍ صَفْراءَ، لا تَعْنينا وَلا تُثيرُ فينا حَنيناً، بَيْنَما يَعُدُّ المَوْتُ ما تَبَقَّى لَنا مِنْ دَقائِقَ بِأَصابِعَ بارِدَةٍ لا تَرْحَمُ.

كَأَنَّنا أَسْرى في قَلْعَةٍ مِنَ اليَأْسِ، تُحيطُ بِنا أَسْوارُ الخَيْبَةِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. نَتَلَمَّسُ طَريقَنا في ظَلامِ الرُّوحِ، وَقَدْ خَبَتْ فينا شُعْلَةُ الأَمَلِ. صِرْنا كَأَشْباحٍ تَهيمُ في مَتاهَةِ الحَياةِ، لا نَدْري أَنَحْنُ أَحْياءٌ أَمْ أَمْواتٌ.

تَتَراقَصُ أَمامَ أَعْيُنِنا أَطْيافُ الماضي، كَسَرابٍ خادِعٍ، يُذَكِّرُنا بِأَيَّامٍ خَلَتْ، حينَ كانَ لِلْحَياةِ طَعْمٌ وَلِلْفَرَحِ مَعْنى. وَلَكِنَّ تِلْكَ الأَيَّامَ قَدْ وَلَّتْ، تارِكَةً وَراءَها رَماداً باهِتاً لا يُشْعِلُ فينا جَذْوَةَ الحَياةِ.

نَقِفُ عَلى حافَّةِ الهاوِيَةِ، نَتَأَمَّلُ ما آلَ إِلَيْهِ حالُنا، وَكَيْفَ صِرْنا أَسْرى لِزَمَنٍ لا يَرْحَمُ، وَقَدَرٍ لا يَلينُ. كُلُّ نَبْضَةِ قَلْبٍ تُقَرِّبُنا مِنَ النِّهايَةِ، وَكُلُّ نَفَسٍ يُذَكِّرُنا بِأَنَّ الرَّحيلَ قَدْ أَزِفَ.

وَمَعَ ذَلِكَ، نَحْنُ هُنا، نُقاوِمُ سَطْوَةَ الفَناءِ، نَتَشَبَّثُ بِخُيوطٍ واهِيَةٍ مِنْ أَمَلٍ رَبَّما لَمْ يَعُدْ لَهُ وُجودٌ. نَنْتَظِرُ مُعْجِزَةً تُنْقِذُنا مِنْ هَذا المَصيرِ المَحْتومِ، أَوْ لَحْظَةَ صَفاءٍ أَخيرَةٍ تُعيدُ إِلى أَرْواحِنا بَعْضَ ما فَقَدَتْهُ مِنْ بَهاءٍ وَحَياةٍ.

فَهَلْ مِنْ مَفَرٍّ مِنْ هَذا المَصيرِ القاسي؟ أَمْ أَنَّنا سَنَظَلُّ هَكَذا، نَتَرَنَّحُ بَيْنَ الحَياةِ وَالمَوْتِ، حَتَّى يَأْتِيَ اليَوْمُ الَّذي تَنْطَفِئُ فيهِ شُموعُ أَعْمارِنا، وَتَتَلاشى أَصْداءُ وُجودِنا في ظُلْمَةِ النِّسْيانِ الأَبَدِيَّةِ؟

يَسْتَحيلُ اللَّيْلُ إلى مَلْحَمَةِ شَجَنٍ، تَنْهَشُني فيها ذِكْرياتٌ كَالذِّئابِ الضَّارِيَةِ، وَتَكْتَويني حَسْرَةٌ كَجَمْرٍ مُتَّقِدٍ، وَتَفْتِكُ بي أَحْزانٌ كَسُيوفٍ مَسْلولَةٍ، بَيْنَما تَرْحَلُ عَنِّي الأَمانِي كَطُيورٍ مُهاجِرَةٍ إلى آفاقٍ قَصِيَّةٍ. كَأَنَّني في ساحَةِ وَغى، تَتَصارَعُ فيها جُيوشُ الهَمِّ وَكَتائِبُ الأَسى، وَأَنا أَسيرٌ بَيْنَها، مُكَبَّلٌ بِأَغْلالِ الوَجَعِ. تَتَوالى عَلَيَّ ضَرَباتُ القَدَرِ كَأَمْواجِ بَحْرٍ هائِجٍ، وَتَتَساقَطُ آمالي كَأَوْراقِ الخَريفِ. فَيا لَهُ مِنْ لَيْلٍ طَويلٍ، يَتَمَطَّى كَتِنِّينٍ جَبَّارٍ، يَبْتَلِعُ في جَوْفِهِ كُلَّ بَصيصِ نورٍ، وَيَتْرُكُني فَريسَةً لِظُلْمَةٍ دامِسَةٍ، تَعْصِفُ بِروحي وَتُمَزِّقُ كِياني.

لا يَلوحُ لِناظِري سِوى سَوادِ الدَّياجيرِ أَنَّى قَلَّبْتُ طَرْفِي، وَلا يَطْرُقُ مَسامِعي غَيْرُ صَدى أَنَّاتي وَنَشيجي. كَأَنَّني في جَوْفِ لَيْلٍ أَبَدِيٍّ، تَتَلاطَمُ فيهِ أَمْواجُ الظُّلْمَةِ، وَتَتَعالى فيهِ زَفَراتُ الأَسى. قَدْ أَحاطَ بي العَتَمُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، فَصِرْتُ كَغَريقٍ في بَحْرٍ مِنَ السَّوادِ، لا يَرى شاطِئاً وَلا يَسْمَعُ نِداءً. تَتَرَدَّدُ صَرَخاتي في فَضاءٍ مُوحِشٍ، كَأَنَّها تَرْتَطِمُ بِجُدْرانِ الصَّمْتِ، فَتَعودُ إِلَيَّ مُحَمَّلَةً بِمَزيدٍ مِنَ الأَلَمِ وَالحُزْنِ. فَيا لَهُ مِنْ مَشْهَدٍ كَئيبٍ، حَيْثُ يَغْدو المَرْءُ سَجينَ ظُلْمَتِهِ، وَأَسيرَ أَوْجاعِهِ، في عالَمٍ لا يَعْرِفُ غَيْرَ لُغَةِ الأَنينِ وَالبُكاءِ.

تَتَلأْلأُ الكَواكِبُ في قُبَّةِ السَّماءِ كَأَنَّها عَبَراتُ طِفْلٍ نَبَذَهُ النِّسْيانُ وَحيداً في هَذا الوُجودِ الفَسيحِ! تَتَناثَرُ النُّجومُ في صَفْحَةِ اللَّيْلِ كَدُرَرٍ مِنْ دُموعِ اليَتيمِ، تُضيءُ الظَّلامَ بِوَميضٍ حَزينٍ. كَأَنَّ السَّماءَ تَبْكي بِصَمْتٍ على حالِ هَذا الصَّغيرِ المَهْجورِ، فَتَسيلُ دُموعُها نُجوماً تَتَرَقْرَقُ في عَيْنِ اللَّيْلِ. تَرْنو إِلَيْها الأَبْصارُ فَتَرى فيها انْعِكاساً لِمَآسي الأَرْضِ، وَصُراخاً صامِتاً يَخْتَرِقُ حُجُبَ الفَضاءِ. فَيا لَهُ مِنْ مَشْهَدٍ يَجْمَعُ بَيْنَ جَمالِ الكَوْنِ وَقَسْوَةِ القَدَرِ، يُجَسِّدُ وَحْدَةَ الإِنْسانِ في عالَمٍ شاسِعٍ لا يَأْبَهُ بِآلامِ الصِّغارِ وَلا بِأَحْزانِ الكِبارِ.

تَسْعى جاهِداً لاِسْتِنْباطِ نَفائِسِ اللَّفْظِ لِهذا الوَجَعِ الطَّاغي، بَيْدَ أَنَّ الكَلِماتِ تَقِفُ عاجِزَةً أَمامَ وَصْفِ الزَّفَراتِ المَكْظومَةِ. تَتَلَوَّى الحُروفُ كَأَفاعٍ مَلْدوغَةٍ، وَتَتَبَعْثَرُ المَعاني كَذَرَّاتِ الرَّمْلِ في مَهَبِّ الرِّيحِ. كَأَنَّ اللُّغَةَ بِأَسْرِها قَدْ أَصابَها الخَرَسُ أَمامَ هَوْلِ ما يَعْتَلِجُ في صَدْرِكَ. تُحاوِلُ اسْتِنْطاقَ الصَّمْتِ، وَاسْتِخْراجَ الدُّرِّ مِنْ أَعْماقِ بَحْرِ الأَلَمِ، لَكِنَّ الأَنّاتِ تَظَلُّ حَبيسَةَ الضُّلوعِ، كَأَسْرارٍ مَدْفونَةٍ في كَهْفٍ مَنْسِيٍّ. فَيا لَهُ مِنْ وَجَعٍ يَفوقُ طاقَةَ البَيانِ، وَيَتَجاوَزُ حُدودَ الإِفْصاحِ، كَأَنَّهُ بُرْكانٌ مِنَ المَشاعِرِ يَغْلي في جَوْفِ الرُّوحِ، عاجِزٌ عَنِ الانْفِجارِ.

أَلْقَتْ بي الحَياةُ كَئيباً في مَسْرَحٍ واهٍ، قد نَتَفَ على الأَلْفِ حَوْلٍ. أَضْحَيْتُ كَطَلَلٍ بالٍ على صَفْحَةِ الزَّمَنِ، تَتَقاذَفُني رِياحُ الأَيَّامِ وَتَعْصِفُ بي صُروفُ الدَّهْرِ. كَأَنَّني أَطْلالٌ دارِسَةٌ في صَحْراءِ الوُجودِ، تَشْهَدُ على عَظَمَةٍ غابِرَةٍ وَمَجْدٍ تَليدٍ. أَقِفُ شامِخاً رَغْمَ وَهْني، صامِداً أَمامَ عَوادي الزَّمانِ، كَجَبَلٍ أَشَمَّ تَتَكَسَّرُ على سُفوحِهِ أَمْواجُ الحَوادِثِ. فَيا لَهُ مِنْ مَشْهَدٍ مُفْعَمٍ بِالأَسى، يَجْمَعُ بَيْنَ عَراقَةِ الماضي وَمَرارَةِ الحاضِرِ، في لَوْحَةٍ تَنْطِقُ بِلِسانِ الحُزْنِ وَتَشْدو بِأَنْغامِ الشَّجَنِ.

تَخْبو الأَماني تَتْرى، وَتَتَلاشى الآمالُ سُدىً، فَيَظَلُّ الفُؤادُ يَنْزِفُ مِنْ كُلومٍ لا تَنْدَمِلُ. تَتَهاوى صُروحُ الرَّجاءِ كَأَوْراقِ الخَريفِ، وَتَذْوي زُهورُ الأَحْلامِ في صَقيعِ الحَقيقَةِ القارِسِ. يَئِنُّ القَلْبُ أَنينَ الثَّكْلى، وَيَنُوحُ نَوْحَ الحَمائِمِ على أَغْصانِ الذِّكْرياتِ. كَمْ مِنْ أُمْنِيَّةٍ غَضَّةٍ ذَبُلَتْ قَبْلَ أَنْ تَتَفَتَّحَ، وَكَمْ مِنْ حُلْمٍ بَهيجٍ تَبَدَّدَ قَبْلَ أَنْ يَتَحَقَّقَ. فَيا لَهُ مِنْ قَلْبٍ مُثْخَنٍ بِالجِراحِ، يَحْمِلُ في طَيَّاتِهِ أَوْجاعَ الدَّهْرِ وَمَرارَةَ الخَيْباتِ، وَما زالَ صامِداً، يُقارِعُ نَوائِبَ الزَّمانِ بِصَبْرٍ أَيُّوبِيٍّ، وَعَزْمٍ لا يَلينُ.

في سَجوِ اللَّيلِ الدَّامِسِ، تَغْشاني نَجاوى الثُّريَّا، فَتَنْقُشُ في فُؤادي أَرَقَّ الأَساطيرِ وأَبْهى الرُّؤى، كَأَنَّما كانَتْ تَتَرَقَّبُ قُدومي مُنْذُ فَجْرِ الخَليقَةِ لِتَبوحَ بِها لي. تَتَهادى إِلَيَّ أَصْداءُ الكَوْنِ في صَمْتِ الدُّجى، فَتُوقِظُ في نَفْسي شَجَناً دَفيناً وَحَنيناً عَميقاً. كَأَنَّ النُّجومَ تُناجيني بِلُغَةٍ سِرِّيَّةٍ، تَخْتَرِقُ حُجُبَ الزَّمَنِ، وَتُحَرِّكُ في أَعْماقي أَوْتاراً خَفِيَّةً. فَأَغْدو كَشاعِرٍ مَفْتونٍ، تَتَراقَصُ الكَلِماتُ على شَفَتَيْهِ، وَتَتَدَفَّقُ المَعاني مِنْ يَراعِهِ، مُسْتَلْهِماً مِنَ السَّماءِ أَسْرارَها، وَمِنَ اللَّيْلِ سَكينَتَهُ وَهَيْبَتَهُ.

(31)

الزمن، ذلك الوحش الضاري الذي لا يُرى، زفيرٌ خافتٌ يسري في الكون كنسمةٍ عليلة، يفوح من حولنا فواح المسك، ولكنه سمٌ زعاف. يتسلل إلى أرواحنا كاللص في جنح الظلام، ناهباً أحلامنا الغضة، سارقاً آمالنا البكر.

يقبض بأناملهِ الخفية على تلك الأماني البريئة، فيجعلها تذوب وتتلاشى كما يذوب الثلج تحت وهج الشمس. يحيلها هباءً منثوراً، كأدخنةِ السجائر المحترقة، تتصاعد عالياً ثم تتبدد في فضاء الوجود الفسيح.

كأن أحلامنا أوراقٌ خريفية، يعصف بها الزمن عصف الرياح بالهشيم، فتتطاير في شوارع القدر الموحشة. تلك الشوارع التي رصفها الدهر بأحجار الخيبة والحسرة، وأنارها بمصابيح الألم والندم.

فها نحن نقف، شهوداً على مسرح الحياة، نرى أحلامنا تحترق أمام أعيننا كأعواد الثقاب، تشتعل للحظة ثم تخبو، تاركةً وراءها رماداً بارداً ودخاناً متلاشياً. نحاول جاهدين الإمساك بها، لكنها تفلت من بين أصابعنا كحبات الرمل.

يا لقسوة الزمن وغدر الأيام! كيف لهذا الزفير الخافت أن يكون بهذه القوة الجبارة؟ كيف لهذا النسيم العليل أن يقتلع جذور أحلامنا الراسخة من أعماق أرواحنا؟

فهل لنا أن نقف في وجه هذا التيار الجارف؟ أم أننا محكومون بمشاهدة أحلامنا وهي تتبخر كقطرات الندى تحت أشعة شمس الحقيقة القاسية؟ هل من سبيل لحماية براءة أمانينا من سطوة الزمن الغادر، أم أننا سنظل كالأطفال نبني قصوراً من الرمال على شاطئ الحياة، لتأتي أمواج الواقع وتجرفها بلا رحمة؟

(32)

في خاتمة المطاف، وعند منتهى الدرب الشائك، أبى النسيان الجحود أن يمد يده لمصافحتي، كأنما هو عدوٌ لدود يأبى الصلح والوئام. تنكر لي سبيل السلوان، وأغلق في وجهي باب الخلاص، فبقيت أسير ذكرياتي، مكبلاً بقيود ماضٍ لا يرحم.

واحتج الضجيج العاتي، ذاك الصخب المقيم في أروقة عقلي، أن يغادر قلعة رأسي الحصينة. تمرد على الرحيل، وأبى الانصراف، كأنه ضيفٌ ثقيل أدمن الإقامة، أو كطاغيةٍ مستبد يرفض التنحي عن عرشه المغتصب.

فها أنا ذا، واقفٌ على مفترق الطرق، بين ذاكرةٍ تأبى النسيان، وعقلٍ يرفض الهدوء. كأنني أسيرٌ بين فكي كماشة، يعتصرني الماضي بذكرياته، ويؤرقني الحاضر بضجيجه. أقف حائراً بين جبلين من الألم، لا أستطيع تسلق أحدهما للنجاة، ولا الفرار من ظلهما الثقيل.

يا لقسوة القدر وجبروت الزمان! أيعجز النسيان عن مد يد العون لروحٍ مثخنةٍ بجراح الذكريات؟ أيأبى الضجيج الرحيل عن عقلٍ يتوق للسكينة كما يتوق الظمآن للماء في الصحراء القاحلة؟

فها أنا أقف، كشجرةٍ عتيقة في مهب الريح، تعصف بي رياح الذكريات، وتهزني عواصف الضجيج. جذوري ضاربةٌ في تربة الماضي، وأغصاني تتلوى تحت وطأة الحاضر الصاخب. أتوق للسكون كما يتوق الغريق للشاطئ، وأنشد النسيان كما ينشد التائه في الصحراء واحة الأمان.

فهل من سبيلٍ للخلاص من هذا السجن المزدوج؟ أم أنني محكومٌ بالبقاء أسيراً لذاكرةٍ لا ترحم، وضجيجٍ لا يهدأ، في معركةٍ خاسرة مع الزمن الذي لا يرأف ولا يلين؟

يا فؤادي الموجوع، ويا صحيفة الرحيل المطوية بدموع الوداع! أنبئني، هل تلقى الوفاء في منازل الغربة الموحشة؟ أم هل تجد الإخلاص في ديار النوى القاصية؟ كيف لك أن تستشعر دفء الألفة في برد الاغتراب القارس؟

أيملأ فراغك الفاغر ذاك الصدى الخافت، صوت الأحباب المبحوح، وهم واقفون على شواطئ الذكريات الآفلة، يلوحون بأيدٍ مرتعشة، ودموعٍ منهمرة؟ أيسد ثغرة الاشتياق في صدرك صدى أصواتهم، وهي تتلاشى في أفق البعد كما يتلاشى ضوء النجم في وضح النهار؟

أتراك، يا قلبي المثخن بجراح الفراق، تجتاز هذا الدرب الوعر، مليء بأشواك الغربة وصخور الوحدة؟ هل تقوى على عبور هذا الطريق الشائك، لتصل إلى ذلك السكون الأبدي، حيث تسكن الروح وتهدأ العواصف؟ أم تراك ستظل هائماً في متاهات الحنين، تائهاً في دروب الذكريات، باحثاً عن وطنٍ ضائع وزمنٍ مفقود؟

يا قلبي المعذب! كم أشفق عليك وأنت تحمل أثقال الغربة على كاهلك المنهك! كأنك جبلٌ من الحزن، تنوء تحت وطأة الشوق والحنين. تحمل في طياتك آهات السنين، وحسرات الفراق، وأنين الوحدة.

فهل لك، يا قلبي الحزين، أن تجد واحة سلام في صحراء الغربة القاحلة؟ هل تعثر على نبع عذب يروي ظمأك في هجير الاغتراب؟ أم أنك ستظل كسفينةٍ تائهة في بحر الحياة المتلاطم، تبحث عن مرفأ أمان، وشاطئ سكينة، في عالمٍ لا يعرف للوفاء معنى، ولا للسكون سبيلاً؟

(34)

أذرع أزقة المدائن وشوارعها بخطى هائمة، كغريبٍ تاه في متاهات الحياة. أرتاد الأماكن القفراء، والبقاع الخاوية، علّي أنسى نفسي المثقلة بأوجاع الزمان. كأنني أبحث عن ظلي الضائع في زحمة الوجود، أو أنشد صدى صوتي في واد سحيق.

أنا كطائرٍ مهاجرٍ، يشق عباب السماء الفسيحة بجناحين كليلين، لا يعرف للأوطان معنى، ولا للاستقرار سبيلاً. أجوب الآفاق البعيدة، كنجمٍ شارد في مجرة لا نهائية، أبحث عن مرسى لروحي التائهة، وملاذٍ لقلبي المتعب.

أساءل الأيام الخوالي، تلك التي كانت بين يدي كاللؤلؤ المنثور: أين ذاك الوشاح العطر، وشاح الحنين الذي كنت أتدثر به في ليالي الغربة الباردة؟ أين ذاك الدفء الذي كان يسري في عروقي كلما تذكرت الديار والأحباب؟

كأنني سفينةٌ تائهة في بحرٍ لجي، تتقاذفها أمواج الحياة، بلا مرساة تثبتها، ولا بوصلة تهديها. أبحث عن شاطئ أمانٍ في عالمٍ متلاطم الأمواج، وأنشد واحة سكينة في صحراء الحياة القاحلة.

فيا أيها الزمان الغادر! أين خبأت ذاك الوشاح المعطر بعبق الذكريات؟ وأين أخفيت تلك الأيام الخوالي التي كانت تؤنسني في وحشة الغربة؟ أتراني سأعثر يوماً على ضالتي، وأجد ملاذاً يأوي إليه قلبي المتعب، وروحي الظامئة للحنان؟

أمضي في دروب الحياة، كورقةٍ في مهب الريح، أبحث عن وطنٍ ضائع، وزمنٍ مفقود، وحنينٍ يؤنس وحدتي في ليالي الغربة الطويلة.

إن الرزء الأفدح، والمصاب الأفجع، أن ترى آمالك العظام وأحلامك الجسام تولي الأدبار، منسحبةً كانسحاب الظل أمام سطوة الشمس، فيما تقف أنت مكبلاً بقيود العجز، شاخصاً ببصرك نحوها، تلوح لها بكف مرتعشة وداعاً أليماً.

كأنك تشهد موكب جنازة أمانيك، وهي تسير أمامك في صمت رهيب، تاركةً خلفها أشلاء قلبك الممزق، وبقايا روحك المحطمة. تنظر إليها وهي ترحل، كما ينظر الغريق إلى سفينة النجاة وهي تبتعد، تاركةً إياه فريسةً لأمواج البحر الهائج.

ترى بعينيك خيوط أحلامك تنفرط كحبات العقد، وأنت عاجزٌ عن لملمتها. كأنك تشاهد قصراً من رمال بنيته بكد السنين ينهار أمامك، ذرةً ذرة، مع هبوب ريح عاتية.

فتقف مذهولاً، مصعوقاً، كتمثالٍ من حجر، تودع أحلامك الراحلة بنظرات حسرى، ودموعٍ حرى، وقلبٍ يمزق ألماً وحسرة. كأنك تشهد غروب شمس عمرك، وأفول نجم آمالك، في مشهدٍ مهيب يمزج ألوان الحزن والجمال.

تنتصب شاهداً على رحيل أحلامك، عاجزاً عن استبقائها، كمن يحاول الإمساك بالماء بين أصابعه. تلك لعمري هي قمة المأساة، وذروة الفجيعة، أن تودع أعز ما تملك، وأغلى ما تطمح إليه، وأنت مكبلٌ بسلاسل الواقع القاسي، عاجزٌ عن فعل شيء سوى إلقاء نظرة الوداع الأخيرة.

(36)

الحياة كقنطرةٍ معلقةٍ فوق وادٍ سحيق، نجتازها خُطىً خُطى، تاركين وراءنا كل ما ألِفناه وعهدناه. بيد أن الدهر، في غمرة تقلباته، يأتي بساعةٍ نجد أنفسنا فيها واقفين على تلك القنطرة، وحيدين كشجرةٍ في صحراء قاحلة.

نلتفت إلى الوراء، فتعصف بنا رياح الحنين إلى ماضٍ ولّى، كأنه حلمٌ عذبٌ تبدد مع أول خيوط الفجر. ثم نرنو إلى الأمام، فيتملكنا الخوف من غدٍ مجهول، كمن يحدق في ظلمة دامسة لا يدري ما تخبئ له من مفاجآت.

في تلك اللحظة الفارقة، يغدو الألم رفيقنا الوحيد، نسكب العبرات على أحلامٍ ضاعت كسرابٍ خادع، وأمانٍ تحطمت كزجاجٍ هشٍ. نذرف دموعاً مرةً على آمالٍ تبخرت كقطرات الندى تحت وهج شمسٍ حارقة.

نتساءل في حيرةٍ وذهول: أفي هذه الحياة ما يستحق كل هذا العناء؟ أتستحق هذه الرحلة المضنية كل هذه الدموع المنهمرة، وهذا الألم الذي ينخر في الأعماق كالسوس في الخشب؟

نقف على حافة الهاوية، متأرجحين بين ماضٍ نحن له، وغدٍ نخشاه. كأننا سفينةٌ تائهةٌ في بحرٍ هائج، تتقاذفها الأمواج بين صخور الذكريات وأعماق المستقبل المجهول.

(37)

أكابد لجم عَبَراتي عن التدفق، وأنا أودع أحبتي الأعزاء. أواري في طيات صدري لوعة الفراق، وأرسم على شفتيّ ابتسامةً باهتة، لعلها تبقى ذكرى عطرة في قلوب من أحب حين يطويني البعاد.

أقبّل الأكف التي طالما احتضنتني، وأنثر الهدايا كما ينثر الغمام قطرات المطر، عساي أن أبدد ظلمة ليلٍ حالك، أو أجبر كسر جناحٍ مهيض. سألوذ بالفرار دون وداعٍ أخير، ولن ألتفت إلى الوراء، كي لا أزيد جرح قلبي نزيفاً، وألم روحي اشتعالاً.

سأعبر حدود الديار، وأمضي في دربٍ مجهولٍ، كالسهم المنطلق من كبد القوس، لا يدري أين يستقر به المقام. سأوصد أبواب الحنين بإحكام، وأطوي صفحة الذكريات، عل النسيان يكون بلسماً لجراحي النازفة.

كالطير المهاجر أرحل، تاركاً خلفي عشاً دافئاً وذكريات عامرة. أحمل في جعبتي أشواقاً لا تُحصى، وفي قلبي حنيناً لا ينضب. سأمضي في رحلتي الطويلة، كالغريب في أرضٍ قاحلة، أبحث عن واحة تروي ظمأ روحي المتعطشة للأمان.

(38)

كلما أوغلتُ في السعي إليك، ازددتُ عنك نأياً وابتعاداً، كأنك نجمٌ في السماء، كلما ظننتُ أني أدنو منه، زاد علواً وارتفاعاً. فيا عجباً لك! تخالف نواميس الكون، وتأبى الانصياع لقوانين الفيزياء الراسخة.

أنت كالأفق البعيد، يلوح للناظرين، فيحسبونه قريباً، وما هو بالقريب. أو كالماء في الصحراء، يحسبه الظمآن واحةً تروي غليله، فإذا جاءه لم يجده شيئاً.

تراوغني مراوغة الظل لصاحبه، كلما حاولتُ الإمساك بك، انزلقتَ من بين أصابعي كقطرات الندى. أنت كالريح، أشعر بك ولا أراك، أسمع همسك ولا أستطيع أن أحتويك.

فيا لك من لغزٍ محيّر، وسرٍ مستعصٍ على الفهم! تجذبني إليك كما تجذب الأرض الأجسام، ثم تنأى عني كما ينأى القمر عن يد من يحاول لمسه.

هل أنت حقيقة أم وهم؟ أم أنك حلمٌ يتراءى لي في يقظتي، فأسعى خلفه سعي الظمآن إلى السراب؟ إن اقترابي منك ليزيدني بُعداً، كأنني أصارع موجاً، كلما ظننت أني بلغت الشاطئ، جرفني التيار إلى عمق البحر.

يتأرجح وجداني بين لحظات الأسى الممتدة كليلٍ دامس، ولحظات الفرح العابرة كومضة برقٍ في سماءٍ ملبدة. فيا لقسوة الدهر حين تذوي البسمة على الشفاه، وتنهمر الدموع المالحة على الوجنتين كأنها شلالٌ من الحزن المتدفق!

أحاول عبثاً أن أبث الروح في حلمٍ قد فارق الحياة منذ أمدٍ بعيد، كمن ينفخ في رمادٍ بارد عله يوقد جمرةً خامدة. لكن أمواج اليأس تتكاثف وتتعاظم، فتغدو أثقل من نفثات الأمل الواهنة.

قد خبا إحساسي وسكنت ثورته، كنارٍ استحالت رماداً بعد اشتعال. تحفر تجاعيد الوجه قصة ماضٍ مرير، وكأنها نقوشٌ على صخرٍ صلد تروي حكاية الزمان الغابر.

يزداد انحناء الظهر يوماً عقب يوم، كأنه شجرةٌ تنوء بحمل ثمارٍ مرة من الشجن المتراكم. تنضب مآقي العين من فرط البكاء، كنبعٍ جف ماؤه في صحراء الحزن القاحلة.

تسكن الروح وتخبو جذوتها، كشمعةٍ ذابت في ليلٍ طويل. وفي النهاية، يطوي النسيان صفحات العمر، كما تطوي الريح أوراق الخريف المتساقطة.

فيا لها من مأساةٍ أن يصير المرء أثراً بعد عين، وذكرى بعد وجود! كأنه نقشٌ على رملٍ تمحوه أمواج الزمن، أو صدى صوتٍ يتلاشى في فضاء الكون الفسيح.

(40)

تتلجلج الحروف في فمي، فتغدو كالسراب الخادع، يلوح للظمآن ثم يتلاشى. أتخبط في دياجير الحيرة، كأنني تائهٌ في صحراء قاحلة، لا أدري كيف أسم صحائف أيامي.

يتناوبني الضحك والبكاء كتعاقب الليل والنهار، في دورةٍ سريعة كأنها رحى الزمان، تطحن ما تبقى من سكينة روحي. أحاول أن أواري مشاعري كما يواري الثعلب آثاره، خشية أن تنهش لحمي مخالب الحياة المتربصة بي.

وسادتي المبللة بدموعي الحرى شاهدةٌ على حزني المكبوت، كأنها صخرةٌ صماء نُقشت عليها قصة آلامي. ما أمض على النفس أن تفقه لغة العيون، فتدرك أن من أمامك يضيق ذرعاً برؤياك، ويتبرم من حديثك!

حينها ألوذ بالصمت، كأنني طيرٌ انكسر جناحاه، فآثر السكوت على التغريد. أحاول جاهداً أن ألملم شتات نفسي، كمن يحاول إصلاح إناءٍ محشم، فلا يزيده إلا تصدعاً.

أتفحص ندوب روحي كما يتفحص المحارب ندوب معاركه، لأواجه من يزعم أنني لم أذق مرارة الحياة بعد. ما أقسى أن تخبو جذوة الروح، كشمعةٍ تصارع الريح في ليلٍ عاصف!

ما أفجع أن تجف عيناك من فرط البكاء، كنبعٍ نضب ماؤه في صحراء الحزن القاحلة! تتخلى عن أحلامك، فتغدو كأوراق الخريف المتساقطة، تدفنها في مقبرة الذكريات، لترقد مع أشباح الماضي.

فيا لها من مأساةٍ أن يصير المرء غريباً عن نفسه، تائهاً في متاهات الحياة، يبحث عن ذاته الضائعة بين ركام الأيام، ويتوق إلى سكينةٍ تأبى أن تزوره إلا في أحلام اليقظة العابرة!

أنا كالغريبِ المُوحِشِ في بيداءَ شاسعةٍ، تائهٌ في دياجيرِ الوحدةِ والضياعِ، كريشةٍ واهنةٍ هَوَت من جناحِ طائرٍ محلّقٍ في الأفقِ البعيدِ. تتقاذفُها رياحُ الغربةِ العاتيةُ، وتعصفُ بها أنواءُ الحياةِ القاسيةِ، فلا تدري أينَ المَقَرُّ، ولا تعرفُ أينَ المَفَرُّ.

انسلخَت عن أصلِها، وانبتَّت عن فصلِها، فلا هي عائدةٌ إلى موطنِها الأولِ، ولا هي واجدةٌ لها موئلاً جديداً. تهيمُ على وجهِها في فضاءٍ لا حدودَ له، كنجمةٍ هاويةٍ سقطَت من كبدِ السماءِ، فأضحت بلا فلكٍ يحتويها.

أضحى الانتماءُ لها حُلماً بعيدَ المنالِ، والاستقرارُ سراباً يلوحُ في الأفقِ ثم يضمحل. تحنُّ إلى جناحٍ لم يعُد لها، وتشتاقُ إلى وطنٍ لم يعُد يعرفُها، فهي غريبةٌ حتى على نفسِها، منفيَّةٌ حتى عن ذاتِها.

فيا لها من غربةٍ موحشةٍ، ويا له من ضياعٍ مُؤلمٍ، أن تكونَ بلا هُويَّةٍ في عالمٍ لا يرحمُ التائهينَ، وأن تمسي بلا انتماءٍ في كونٍ لا يعترفُ بالضائعينَ، فهل من مُنقذٍ يُعيدُ لهذه الريشةِ جناحَها، أم هل من واحةٍ تحتضنُ هذا الغريبَ وتمنحهُ الأمانَ ؟

واحسرتاه! كيف اغتيلت أحلامُنا في ليلٍ بهيمٍ، كأنها غزالٌ فتيٌّ صرعتهُ سهامُ القدرِ الغادرةِ؟ أيُّ يدٍ آثمةٍ نثرت رمادَها على مقابرِ الذكرياتِ، كما تُذري الريحُ العاتيةُ ترابَ الصحراءِ؟ مَن ذا الذي يملكُ القدرةَ على إحياءِ هذه الأنقاضِ المتناثرةِ، ويُعيدُ لها بهاءَها وعِزَّها؟

أيُّ كفٍّ حانيةٍ ستُمسكُ بطرفِ خيطِ الأملِ الواهي، وتنسجُ منه ثوباً جديداً للحياةِ؟

آهٍ على أحلامٍ كانت بالأمسِ القريبِ في متناولِ اليدِ، واليومَ غدت أبعدَ من النجومِ المتلألئةِ في السماء. باتت أحلامُنا ربيعاً أقفرَ، ذَوَت أزهارُهُ الناضرةُ، وخَبَت ألوانُهُ الزاهيةُ. توارت شمسُهُ خلفَ سُحُبِ اليأسِ، وحلَّ ليلُهُ الدامسُ فلم يُغادر. يا لَهفي على براعمِ الأملِ التي أجهضتها رياحُ الخيبةِ! ويا حسرتي على نسائمِ الرجاءِ التي خنقتها أعاصيرُ اليأسِ!

هل من سبيلٍ لإعادةِ الروحِ إلى هذا الجسدِ الهامدِ؟ أم هل من وسيلةٍ لبعثِ الحياةِ في هذه الأطلالِ الدارسةِ؟.أيتها الأحلامُ المغدورةُ، هل لكِ أن تنهضي من رقادِكِ الأبدي؟ أم هل لكِ أن تنفضي عن كاهلِكِ غبارَ الموتِ والنسيان؟

روحي أطلالٌ دارسةٌ وخرائبُ باليةٌ، تحتضنُ في أحشائِها طفلاً بريئاً، يراودُهُ حلمٌ بمستقبلٍ قد تبخَّرَ كالسرابِ في صحراءَ قاحلةٍ. تُداري هذا البُرعُمَ الغضَّ، وهو يتشبَّثُ بأملٍ واهٍ، كمن يتعلَّقُ بقشَّةٍ في خِضَمِّ بحرٍ هائجٍ. يا لَهفي على حُلمٍ عزيزٍ ألقيتُهُ في مهبِّ الرِّياحِ العاتيةِ، فذرَّتهُ كما تُذري الصحراءُ حبَّاتِ الرمالِ. وا أسفاه على أمانٍ غالٍ التهمتهُ نيرانُ الحروبِ الضَّروسِ، فأحالتهُ رماداً تذروهُ العواصفُ.

أبكي على رُقادٍ هانئٍ نهشَهُ الأرقُ بأنيابِهِ الحادَّةِ، فغدا كطيفٍ خادعٍ يُراودُ الجفونَ المُتعبةَ. أيُّها الطِّفلُ الحالمُ في أعماقِ روحي المُحطَّمةِ، هل تدري أنَّكَ تبني قصوراً من رمالٍ على شاطئِ الوهمِ؟

يا نفسُ، كيف تُداريـنَ هذا البراءةَ وسطَ هذا الخرابِ؟ أتحاولينَ إخفاءَ الشمسِ بغربالٍ، أم سترَ البحرِ بكفٍّ؟ هل في إبقاءِ هذا الحُلمِ حياةٌ، أم في إماتتِهِ راحةٌ؟ أفي الوهمِ عزاءٌ، أم في مواجهةِ الحقيقةِ المُرَّةِ خلاصٌ؟ فيا طفلَ الأحلامِ، ويا براعمَ الآمالِ في صدري، هل أُبقيكَ حيَّاً فتعذِّبَني، أم أُميتُكَ فأموتَ معكَ؟ أأحميكَ من قسوةِ الواقعِ، أم أُلقي بكَ في خِضَمِّهِ لتصارعَ وتنمو؟ فربَّما في الصراعِ قوَّةٌ، وفي المواجهةِ حياةٌ جديدةٌ.

أيها الهائمُ في دروبِ الحياةِ، اعلم أنَّ صداكَ لن يجدَ آذاناً صاغيةً، فلا أحدَ سيُلقي بالاً لضآلةِ شأنِكَ، أو يُعيرُ اهتماماً لتفاهةِ أمرِكَ. ولن تجدَ من يُصغي لنحيبِكَ المتواصلِ في جنحِ الليلِ الداجي، أو يستمعُ لأنينِكَ المتصاعدِ في أطرافِ النهارِ المُشرقِ.

فلتوقن أيها المُبتلى، أنكَ تواجهُ هذا الكونَ الفسيحَ وحيداً، كالفارسِ الأعزلِ في ساحةِ الوغى، أو كالغريبِ في بيداءَ قاحلةٍ. تخوضُ غِمارَ الحياةِ بأجنحةٍ مبتورةٍ، كنسرٍ حاولَ التحليقَ فهوى، وبقلبٍ من حديدٍ صلدٍ، لا يلينُ للعواطفِ ولا يرقُّ للمشاعرِ.

كُن كالصخرِ في صلابتِهِ، وكالجبلِ في شموخِهِ،.واجعل من قسوةِ الحياةِ دِرعاً يقيكَ، ومن مرارةِ التجاربِ سيفاً يحميكَ. فإنَّ هذا العالمَ لا يرحمُ الضعفاءَ، ولا يشفقُ على المستضعفينَ، بل يبتلعُ الواهنينَ كما تبتلعُ الصحراءُ قطراتِ المطرِ.

اصمد أيها الفارسُ الوحيدُ، وواجه أعاصيرَ الدهرِ بصدرٍ رحبٍ، ولا تنتظر من أحدٍ عوناً أو مدداً، فأنتَ سندُ نفسِكَ وعمادُها. وليكن شعارُكَ في هذه الحياةِ: إمَّا أن تعلوَ أو تَفنى، فإنَّ الموتَ واقفاً خيرٌ من الحياةِ راكعاً، والفناءُ عزيزاً أكرمُ من البقاءِ ذليلاً.

أجاهدُ نفسي في لملمةِ شتاتِ ذاتي المبعثرةِ، كمن يحاولُ جمعَ قطراتِ الماءِ بكفٍّ مثقوبةٍ. أخالُني غريقاً في هوَّةٍ سحيقةٍ، لا قرارَ لها ولا نهاية، كلما ظننتُ أني بلغتُ القاعَ، هويتُ إلى ما هو أعمق.

أتجرَّعُ كؤوسَ الخيباتِ المُرَّةِ، واحدةً إثرَ أخرى، كأنني ظمآنٌ في صحراءِ الحياةِ، لا يرتوي إلا بمرارةِ الفشلِ. ومع ذلك، لم يمتلئ وطابُ نفسي من هذا الشرابِ العَلقمِ، ولم أنلْ كفايتي من هذا الزادِ المسمومِ.

عجباً! لم أحفظ بعدُ طعمَ الخذلانِ القارصَ، رغمَ كلِّ ما ذُقتُهُ من مرارةِ الأيامِ وقسوةِ الليالي. وبالرغمِ من الغصَّةِ المتربّصةِ في حلقي، كشوكةٍ عالقةٍ، والعَبرةِ المختنقةِ في صوتي، كنشيجِ طفلٍ يتيمٍ،

لا أزالُ أتوقُ إلى المزيدِ من هذا العذابِ الأليمِ، كأنَّ نفسي عاشقةٌ للألمِ، مُدمن على الوجعِ. فهل أنا كفراشةٍ تهوى الاحتراقَ بنارِ الحياةِ؟ أم كصخرةٍ صمَّاءَ، كلما حطَّمتها الأمواجُ ازدادت صلابةً؟

يا نفسُ، هل في هذا العناءِ لذَّةٌ خفيَّةٌ؟ أم أنَّ في قرارةِ هذا الألمِ نشوةً سريَّةً؟ أم تُراكِ تبحثينَ عن معنى سامٍ في ثنايا المحنِ؟

فالذهبُ لا يُصقلُ إلا في أتونِ النارِ، والماسُ لا يتشكَّلُ إلا تحت وطأةِ الضغطِ الهائلِ.

كففتُ عن إرهاقِ نفسي بإبرازِ جوهرِها الحقّي، وأعرضتُ عن تكلُّفِ إظهارِ كُنهِها الصادقِ. بل غدوتُ كالصيَّادِ الماهرِ، أترصَّدُ فريستي بعينٍ ثاقبةٍ، وأتفحَّصُ مَن أمامي بنظرةٍ فاحصةٍ نافذةٍ.

فإذا ما استبنتُ طبيعةَ مُحدِّثي، وسبرتُ أغوارَ نفسِه، انتقيتُ من معرضِ الأقنعةِ ما يلائمُ المقامَ والحال. كالحرباءِ أتلوَّنُ بألوانِ البيئةِ المحيطةِ، وكالماءِ أتشكَّلُ بشكلِ الإناءِ الحاوي. فتراني تارةً كالليثِ في شدَّتِه، وطوراً كالحَمَلِ في وداعتِه، وحيناً كالبحرِ في عمقِه، وآونةً كالنسيمِ في رقَّتِه.

أُخفي حقيقتي خلفَ ستارٍ من الأوهامِ، وأحجبُ ذاتي وراءَ حجابٍ من الظنونِ. فهل أصبحتُ كالسرابِ، يُرى من بعيدٍ ماءً، وإذا ما اقتربَ منه الظمآنُ لم يجدهُ شيئاً؟ أم أنني كالصدفةِ، أُخفي في أعماقي لؤلؤةً ثمينةً، لا يدركُ قيمتَها إلا من غاصَ في أعماقِ البحارِ يا نفسُ، هل هذا التخفّي نجاةٌ أم هلاكٌ؟ وهل في هذا التلوُّنِ حكمةٌ أم ضلالٌ؟

(47)

تاهت نفسي في خضمّ الحشودِ المتلاطمةِ، وضلّت بين أمواجِ الوجوهِ المتزاحمةِ. كغريقٍ في بحرٍ من البشرِ، تقاذفتني تياراتُ الأنفسِ، وجرفتني دواماتُ الأرواحِ الهائمةِ.

سعيتُ جاهداً لاستردادِ ذاتي الضائعةِ، ولملمةِ شتاتِ روحي المتناثرةِ، فإذا بي أضعُ في مكانِها وعاءً خاوياً، كجوفِ الصدى، فارغاً من كلِّ معنى.

يا لهفَ قلبي على نفسٍ ضاعت في زحمةِ الحياةِ، وذاتٍ تبددت بين ثنايا الوجودِ! أأصبحتُ كالسرابِ، خادعَ المظهرِ، فارغَ الجوهرِ؟ أم غدوتُ كالطللِ، باقيَ الرسمِ، دارسَ المعنى؟

فيا أيها التائهُ في بحرِ الوجوهِ، والضائعُ في غمارِ النفوسِ، هل من سبيلٍ لاستعادةِ ما ضاع؟ أم أنَّ القدرَ قد حكمَ بالضياعِ الأبدي؟

لعلَّ في هذا الصندوقِ الفارغِ حكمةً، ودرساً لمن يبحثُ عن ذاتهِ في غيرِهِ، فالنفسُ لا تُملأ إلا بمعرفةِ خالقِها، ولا تسكنُ إلا في ظلِّ باريها.

أيها الساعي إلى المجدِ، والطامحُ إلى العُلى، اعلم أنَّ الأحلامَ العِظامَ لا تُنالُ بيُسرٍ ولا هوادة. فإن وجدتَ سبيلَ أمانيكَ مُعبَّداً، خالياً من الأشواكِ والعَثَرات، فاعلم أنَّ حياتَكَ قد غدت كالصحراءِ القاحلةِ، جدباءَ من المعاني.

إنَّ الحُلمَ الهيّنَ المَنالِ، السهلَ المَرامِ، لَهوَ دليلٌ على حياةٍ راكدةٍ، كبِركةٍ آسنةٍ لا حراكَ فيها. فالنفسُ الأبيَّةُ لا ترضى إلا بالقممِ الشامخةِ، ولا تقنعُ إلا بالغاياتِ البعيدةِ المَنال.

فكُن كالصقرِ في علوِّ همَّتِه، لا يرضى بغيرِ ذُرى الجبالِ وكَنا، وكُن كالبحرِ في عظمةِ أحلامِه، لا يحدُّه ساحلٌ ولا يَسعُه إناء. فإنَّ الحياةَ الحقَّةَ هي تلك التي تزخرُ بالتحدياتِ، وتفيضُ بالعقباتِ، وتمتلئُ بالمغامراتِ.

فاجعل من أحلامِكَ جبالاً شاهقةً، تتحدى همَّتَكَ لتسلقَها، واجعل من آمالِكَ نجوماً بعيدةَ المَنالِ، تستنهضُ عزيمتَكَ للوصولِ إليها. فبقدرِ صعوبةِ الحُلمِ تكونُ عظمةُ الإنجازِ.وبمقدارِ المشقةِ في الطريقِ تكونُ حلاوةُ الظفرِ.

أمرتني الوالدةُ، تلك التي حملتني وهناً على وهنٍ، أن أفتحَ كوّةَ البيتِ، بابَ النورِ إلى ظلماتِ الحجراتِ. فلما امتثلتُ لأمرها، وقمتُ بما أوصت به شفتاها،.إذا بنسيمٍ عاتٍ يهبُّ كأنه ريحُ صرصرٍ في يومٍ نحسٍ مستمرٍ. فتناثرت أشلائي كما يتناثرُ الهباءُ المنثورُ في الفضاءِ،.وتبعثرت أجزائي كتبعثرِ حبّاتِ الرملِ في مهبِّ الصحراءِ.

فيا لهفَ قلبي! ومن ذا الذي سيلملمُ شتاتَ ذاتي؟ ومن ذا الذي سيجمعُ ما تفرّقَ من كياني؟ظهل من يدٍ حانيةٍ تعيدُ ترتيبَ فسيفساءِ روحي؟.أم من قلبٍ رؤومٍ يضمُّ شظايا وجداني؟

أم أنني سأبقى كالطللِ الدارسِ في بيداءِ الحياةِ، تذروني الرياحُ وتعصفُ بي الأيامُ، حتى يقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً؟

الليلُ مَثوى الأرواحِ الكليلةِ، وموئلُ النفوسِ المكلومةِ الذليلةِ، يحتضنُ في جوفهِ الأنّاتِ الدفينةَ، ويُؤوي بين طيّاتهِ الآهاتِ الحزينةَ.

في ظلماتهِ تنبعثُ الذكرياتُ الموجعةُ، كسهامٍ مسمومةٍ تخترقُ الفؤادَ، وكأشواكٍ حادةٍ تدمي الوجدانَ، فتنزفُ الروحُ ألماً وتئنُّ الجوارحُ وجعاً.

يتسربلُ الدجى بالجراحِ النازفةِ، ويتوشحُ بالكدماتِ الغائرةِ، فيغدو كلُّ نَفَسٍ زفرةَ ألمٍ،.وكلُّ خفقةِ قلبٍ نبضَ وجعٍ.

عبقُ الألمِ يفوحُ مع نسماتِ السحرِ، ويمتزجُ بقطراتِ الندى على أوراقِ الشجرِ، فتغدو الأرضُ مرتعاً للأنينِ، والسماءُ مرآةً للحزنِ الدفينِ.

أيها الليلُ، يا ملاذَ المكلومينَ، ويا ملجأَ المفجوعينَ، هل من سبيلٍ إلى الخلاصِ؟ أم أنَّ الفجرَ قد آذنَ بالانبلاجِ؟

أَلا نَحنُ مَن سَحَقَ حُزنُنا وَميضَ الرَّجاءِ، كَصَخرَةٍ هَوَت مِن شاهِقٍ فَهَشَّمَت زَهرَةً يانِعَةً. نَحنُ مَن طَمَسَ الأَسى في قُلوبِنا شُعاعَ الشَّمسِ المُتَسَلِّلَ في غَياهِبِ الظُّلمَةِ، كَأَنَّما حَجَبَتهُ غَمامَةٌ سَوداءُ لا تَنقَشِعُ.

إِنَّا لَنَحنُ مَن أَغرَقَت عَبَراتُهُمُ الوَسائِدَ، حَتَّى غَدَت كَبَحرٍ مِن الأَحزانِ، تَتَلاطَمُ أَمواجُهُ وَلا تَهدَأُ. وَلَم يَجِدوا مَن يُواسيهِم في لَيلِهِمُ الطَّويلِ، فَباتوا كَغُرَباءَ في صَحراءِ الوَحشَةِ، لا أَنيسَ وَلا رَفيقَ.

نَحنُ أُولئِكَ الَّذينَ عَصَفَت بِهِم رِياحُ الهَمِّ، فَأَطفَأَت شُموعَ الفَرَحِ في مَحاريبِ أَرواحِهِم. نَحنُ مَن تَجَرَّعَ كَأسَ المَرارَةِ حَتَّى الثُّمالَةِ، فَلَم يَبقَ في فَمِهِ طَعمٌ لِلحَلاوَةِ.

وا أَسَفاهُ عَلى قُلوبٍ كانَت يَوماً مَنابِعَ لِلسَّعادَةِ، فَغَدَت كَهوفاً لِلأَحزانِ! وا حَسرَتاهُ عَلى عُيونٍ كانَت تَشُعُّ بِالبَهجَةِ، فَأَمسَت يَنابيعَ لِلدُّموعِ لا تَنضُبُ!

فَهَل مِن مُغيثٍ يُنقِذُنا مِن بَحرِ الأَسى الَّذي غَرِقنا فيهِ؟ أَم أَنَّنا سَنَظَلُّ نُصارِعُ أَمواجَ الحُزنِ، حَتَّى تَبتَلِعَنا لُجَّةُ اليَأسِ، وَنَغيبُ في أَعماقِها إِلى الأَبَدِ؟

أَلا إِنَّ الأَيَّامَ لَتَتَساقَطُ كَأَوراقِ الخَريفِ الذَّابِلَةِ، تَتَهاوى مِن شَجَرَةِ العُمرِ بِلا رَحمَةٍ وَلا هَوادَةٍ. تَمضي سِراعاً كَأَنَّها سِهامٌ أُطلِقَت مِن قَوسِ الدَّهرِ، لا تَلوي عَلى شَيءٍ وَلا تَعرِفُ السُّكونَ.

وَا حَسرَتاهُ! لَيتَ الحَبيبَ يَعودُ إِلى رِحابِ القَلبِ، فَلا يَغيبُ عَنهُ أَبَداً! لَيتَهُ كَالشَّمسِ الَّتي لا تَعرِفُ الأُفولَ، أَو كَالنَّجمِ الَّذي لا يَخبو ضِياؤُهُ. لَيتَهُ كَالنَّبعِ الَّذي لا يَنضُبُ ماؤُهُ، أَو كَالزَّهرِ الَّذي لا يَذبُلُ عَلى مَرِّ الفُصولِ.

آهٍ يا زَمَناً يَمضي وَلا يَعودُ! وَآهٍ يا حَبيباً يَرحَلُ وَلا يَؤوبُ! كَم تَمَنَّيتُ أَن أُوقِفَ عَجَلَةَ الزَّمَنِ، وَأَن أَحبِسَ الحَبيبَ في مَحاريبِ الفُؤادِ، فَلا يَبرَحُها أَبَداً.

لَكِنَّ هَيهاتَ! فَالأَيَّامُ تَجري كَالسَّيلِ الجارِفِ، لا يَرُدُّها رادٌّ وَلا يَصُدُّها صادٌّ. وَالحَبيبُ كَطائِرٍ حُرٍّ، لا يُمكِنُ أَسرُهُ في قَفَصِ الأَمَنِيّاتِ. فَهَل لِلقَلبِ إِلّا أَن يَتَجَرَّعَ مَرارَةَ الفِراقِ، وَيَتَحَسَّرَ عَلى أَيّامٍ وَلَّت، وَحَبيبٍ غابَ؟

فَوا أَسَفاهُ عَلى زَمَنٍ يَمضي، وَوا لَهفاهُ عَلى حَبيبٍ لا يَعودُ!

أَلا إنَّ هَذا الأَمرَ لَكَالخَوضِ في غِمارِ مَعرَكَةٍ، أَنتَ مُوقِنٌ بِهَزيمَتِكَ فيها قَبلَ أَن تَطَأَ أَرضَ الوَغى! كَمَن يَتَقَدَّمُ لِخَوضِ اختِبارٍ عَسيرٍ، وَقَد نُقِشَ عَلى صَفحاتِ قَلبِهِ أَنَّهُ سَيَخرُجُ مِنهُ مَغلوباً مَقهوراً.

فَيا لَها مِن حالَةٍ مُؤلِمَةٍ! أَن تَسيرَ نَحوَ مَصيرِكَ وَأَنتَ تَعلَمُ عِلمَ اليَقينِ أَنَّ الفَشَلَ يَنتَظِرُكَ عِندَ نِهايَةِ الطَّريقِ. كَأَنَّكَ تَخوضُ بَحراً هائِجاً، وَأَنتَ لا تُجيدُ السِّباحَةَ، أَو تَتَسَلَّقُ جَبَلاً شاهِقاً، وَقَد خانَتكَ قُواكَ مُنذُ البِدايَةِ.

إنَّها لَمُعاناةٌ نَفسِيَّةٌ مَريرَةٌ، تُشبِهُ مَن يَحفِرُ قَبرَهُ بِيَدَيهِ، أَو يَنسِجُ كَفَنَهُ بِأَناملِهِ. فَكَيفَ لِلمَرءِ أَن يَتَقَدَّمَ وَهُوَ يَعلَمُ أَنَّهُ سَيَتَراجَعُ؟ وَكَيفَ لَهُ أَن يَسعى وَهُوَ مُدرِكٌ أَنَّ سَعيَهُ سَيَذهَبُ سُدىً؟

لَعَلَّ هَذِهِ الحالَةَ هِيَ أَشَدُّ أَنواعِ العَذابِ، حَيثُ يَجتَمِعُ الأَلَمُ مَعَ العِلمِ، وَالمُعاناةُ مَعَ اليَقينِ. فَهَل مِن سَبيلٍ لِلنَّجاةِ مِن هَذا المَأزِقِ؟ أَم أَنَّ القَدَرَ قَد كَتَبَ عَلَينا أَن نَخوضَ مَعارِكَ نَعلَمُ مُسبَقاً أَنَّنا سَنَخسَرُها، لِنَتَعَلَّمَ دُروساً في الصَّبرِ وَالصُّمودِ، وَنَكتَشِفَ في أَعماقِنا قُوَّةً لَم نَكُن نَعلَمُ بِوُجودِها؟

أَلا إنَّ جُرحاً غائِراً في أَعماقِ الفُؤادِ قَد عاوَدَهُ النَّزيفُ، فَأَخَذَ يَسيلُ دَماً قانِياً، كَأَنَّهُ نَهرٌ مِنَ الأَلَمِ يَتَدَفَّقُ في شِرايينِ الرُّوحِ. ذاكَ الجُرحُ الَّذي ظَنَنَّاهُ قَد اندَمَلَ، إذا بِهِ يَنفَجِرُ مِن جَديدٍ، مُعلِناً أَنَّ الزَّمَنَ لَم يَشفِهِ، وَأَنَّ النِّسيانَ لَم يَطوِهِ.

وَها هُوَ ذا عَبَقُ الذِّكرياتِ يَتَقافَزُ في عَقلي كَفَراشاتٍ مُلَوَّنَةٍ، أَو كَطُيورٍ شادِيَةٍ تُغَرِّدُ أَلحانَ الماضي. تَتَراقَصُ تِلكَ الذِّكرياتُ في سَماءِ الفِكرِ، تارَةً تَبتَسِمُ كَشَمسٍ مُشرِقَةٍ، وَطَوراً تَبكي كَغَيمَةٍ مُثقَلَةٍ بِالمَطَرِ.

فَيا لَهُ مِن مَشهَدٍ مُتَناقِضٍ! جُرحٌ يَنزِفُ وَذِكرياتٌ تَرقُصُ، أَلَمٌ يَعصِفُ وَحَنينٌ يَهمِسُ. كَأَنَّ القَدَرَ يُريدُ أَن يُذَكِّرَنا بِأَنَّ الحُلوَ وَالمُرَّ صِنوانِ لا يَفتَرِقانِ، وَأَنَّ الفَرَحَ وَالحُزنَ وَجهانِ لِعُملَةٍ واحِدَةٍ.

فَهَل نَستَسلِمُ لِهَذا المَزيجِ العَجيبِ مِنَ الأَلَمِ وَالحَنينِ؟ أَم نُحاوِلُ أَن نَنتَزِعَ مِن بَينِ أَنيابِ الوَجَعِ لَحَظاتِ فَرَحٍ، وَنَقطِفَ مِن بُستانِ الذِّكرياتِ زَهراتِ الأَمَلِ؟ تِلكَ هِيَ مَعرَكَةُ النَّفسِ مَعَ ذاتِها، صِراعٌ بَينَ ما كانَ وَما سَيَكونُ، بَينَ جُرحٍ يُريدُ أَن يَبقى، وَرُوحٍ تَتُوقُ إِلى الشِّفاءِ.

وا أَسَفاهُ! فَقَد هَرِمَ الفُؤادُ وَأَضحى كَشَيخٍ طاعِنٍ في السِنّ، يَئِنُّ تَحتَ وَطأَةِ الأَيّامِ وَثِقَلِ السِنينَ. ذاكَ القَلبُ الَّذي كانَ يَنبِضُ بِالحَياةِ وَيَفيضُ بِالعَواطِفِ، غَدا الآنَ كَهفاً مُوحِشاً تَسكُنُهُ الذِكرياتُ البالِيَةُ وَالآمالُ الخائِبَةُ.

وَشابَتِ المَشاعِرُ كَما يَشيبُ شَعرُ الرَأسِ، فَابيَضَّت مِن طولِ ما قاسَت مِن مِحَنٍ وَشَدائِدَ. تِلكَ الأَحاسيسُ الَّتي كانَت تَتَوَهَّجُ كَالجَمرِ، وَتَتَدَفَّقُ كَالسَيلِ الجارِفِ، أَمسَت الآنَ باهِتَةً كَأَوراقِ الخَريفِ، ذابِلَةً كَزَهرٍ جَفَّتهُ الشَمسُ.

فَيا لَهُ مِن مَشهَدٍ مُؤلِمٍ! أَن تَرى فُؤادَكَ قَد أَثقَلَتهُ التَجارِبُ، وَعَواطِفَكَ قَد أَنهَكَتها الخَيباتُ. كَأَنَّ الزَمَنَ قَد سَطا عَلَيها بِمِخالِبِهِ، فَتَرَكَها مُمَزَّقَةً، تَئِنُّ مِن وَجَعٍ لا يَنقَطِعُ، وَتَشكو مِن أَلَمٍ لا يَنتَهي.

فَهَل مِن سَبيلٍ لِإِعادَةِ الشَبابِ إِلى قَلبٍ هَرِمَ؟ أَم هَل مِن وَسيلَةٍ لِبَثِّ الحَياةِ في مَشاعِرَ شاخَت؟ تِلكَ أَسئِلَةٌ تَتَرَدَّدُ في أَعماقِ النَفسِ، وَتَصرُخُ في فَضاءِ الرُوحِ، باحِثَةً عَن إِجابَةٍ قَد لا تَأتي أَبَداً.

لَعَلَّ جُرحاً غائِراً يَندَمِلُ، وَكَلِماً دامِياً يَلتَئِمُ، فَيَعودُ الجِلدُ إِلى سالِفِ عَهدِهِ، كَأَنَّ لَم يَمَسَسهُ سوءٌ قَطُّ.

وَعَسى أَن تَتَبَدَّدَ أَضغاثُ الأَحزانِ، وَتَتَلاشى سُحُبُ الهُمومِ، فَتَنقَشِعُ عَن سَماءِ النَّفسِ غَياهِبُ الكَدَرِ، وَيَنجابُ ظَلامُ الأَسى.

ثُمَّ يَتَلَأْلَأُ نورُ السَّعادَةِ، كَأَنَّهُ كَوكَبٌ دُرِّيٌّ يَتَوَهَّجُ في سَماءٍ صافِيَةٍ، أَو شَمسٌ مُشرِقَةٌ تَبعَثُ أَشِعَّتَها الذَّهَبِيَّةَ عَلى صَفحَةِ الوُجودِ.

لَحظَة مُشرِقَة، حينَ يَنقَلِبُ العُسرُ يُسراً، وَالحُزنُ فَرَحاً، وَالظُّلمَةُ نوراً! كَأَنَّ الدَّهرَ قَد أَفاقَ مِن غَفلَتِهِ، وَأَدرَكَ ما أَلحَقَهُ بِنا مِن جَورٍ، فَعَزَمَ عَلى رَدِّ الجَميلِ وَإِسباغِ النِّعَمِ.

فَلنَتَشَبَّث بِخَيطِ الأَمَلِ، وَلنَستَمسِك بِعُروَةِ الرَّجاءِ، عَلَّ الزَّمانَ يَجودُ عَلَينا بِلَحظَةٍ مِن تِلكَ اللَّحَظاتِ السَّعيدَةِ، فَنَنعَمُ بِها وَنَرتَوي مِن عَذبِ مائِها.

لَستُ بِمُنقَطِعٍ عَنِ الأَنامِ، وَلا بِمُنعَزِلٍ عَنِ الخَلقِ. كُلُّ ما في الأَمرِ أَنَّ نَفسي لا تَستَشعِرُ الطُّمَأنينَةَ في زَحمَةِ الحَياةِ وَضَجيجِ البَشَرِ. فَلَستُ مُرغَماً عَلى مُجاراةِ صِغارِ العُقولِ أَو مُسايَرَةِ الجاهِلينَ بِحُجَّةِ كَوني "اجتِماعِيّاً".

وسط هَذا المُجتَمَعِ المُتَلاطِمِ، أَجِدُ نَفسي كَسَفينَةٍ تائِهَةٍ في بَحرٍ هائِجٍ. أَضيعُ طَريقي وَأَنسى كُنهَ ذاتي. يَعرُضُ عَنّي عَقلي كَأَنَّهُ غَريبٌ، وَيَذهَبُ رُشدي كَأَنَّهُ سَرابٌ. تَتَلاشى روحي رُوَيداً رُوَيداً، كَما يَتَلاشى قَطرُ النَّدى تَحتَ وَطأَةِ شَمسٍ حارِقَةٍ.

لِذا، أُجاهِدُ نَفسي جِهاداً عَظيماً لِلحِفاظِ عَلى جَوهَري، وَصَونِ كِياني. أَسعى جاهِداً لِحِمايَةِ شُعلَةِ روحي مِنَ الانطِفاءِ في زَوبَعَةِ الحَياةِ. أَتَشَبَّثُ بِذاتي كَما يَتَشَبَّثُ الغَريقُ بِطَوقِ النَّجاةِ.

فَلا تَحسَبوا انزِوائي ضَعفاً، أَو عُزلَتي جُبناً. إِنَّما هِيَ حِكمَةُ العارِفِ، وَفِطنَةُ البَصيرِ. فَالعاقِلُ مَن صانَ نَفسَهُ عَنِ الابتِذالِ، وَحَفِظَ روحَهُ مِنَ الضَّياعِ في زَحمَةِ الجُهّالِ.

أَنا ذاكَ الصَّبيُّ الَّذي راوَدَتهُ أَحلامُ الكِبَرِ، وَتَمَنَّى لَو يَنفُضُ عَنهُ غُبارَ الصِّغَرِ. سَعى جاهِداً لِيَبلُغَ مَبلَغَ الرِّجالِ، وَيَرتَقي مَراقِي الكُهولِ.

فَلَمَّا تَحَقَّقَت أُمنِيَّتُهُ، وَبَلَغَ ما كانَ يَصبو إِلَيهِ، أَلفى نَفسَهُ في مَأزِقٍ عَظيمٍ وَحَيرَةٍ مُستَديمَةٍ. آنَسَ في قَرارَةِ نَفسِهِ أَنَّهُ مُستَعِدٌّ لِتَناوُلِ الجيَفِ النَّتِنَةِ، وَالتَّهامِ اللُّحومِ الفاسِدَةِ، وَالتَّقَلُّبِ في أَوحالِ الرَّذيلَةِ، كَي يَعودَ إِلى بَراءَةِ الطُّفولَةِ وَنَقاءِ الصِّبا.

وا أَسَفاهُ عَلى عُمرٍ وَلَّى، وَزَمَنٍ انقَضى! وا حَسرَتاهُ عَلى بَراءَةٍ ضاعَت، وَسَعادَةٍ تَبَدَّدَت! فَها هُوَ ذا يَقِفُ عَلى أَطلالِ طُفولَتِهِ يَستَجدي ذِكرياتِها، وَيَستَعطِفُ أَيَّامَها الخَوالي.

هَل يُمكِنُ لِلزَّمَنِ أَن يَعودَ القَهقَرى؟ أَم هَل يُمكِنُ لِلشَّيخِ أَن يَرتَدَّ طِفلاً يَحبو؟ تِلكَ أُمنِيَّةٌ عَزيزَةُ المَنالِ، بَعيدَةُ الاحتِمالِ، لا تَتَحَقَّقُ إِلَّا في عالَمِ الخَيالِ.

يَستَفهِمونَني عَن عِلَّةِ إقدامي عَلى تَسطيرِ الكَلِمِ وَنَظمِ القَوافي!

أَلا فَليَعلَموا أَنَّ الكِتابَةَ لي كَالنَّسَمِ لِلرِّئَةِ، وَكَالماءِ لِلظَّمآنِ في الهَجيرِ. إنَّها مَنفَذي الوَحيدُ في هَذِهِ الحَياةِ لِإظهارِ مَكنونِ النَّفسِ وَإبرازِ خَفايا الفُؤادِ.

هِيَ مَلجَأي حينَ تَشرُدُ رُوحي في بَيداءِ الحَيرَةِ، وَمَأواي إذا ضاقَت بي سُبُلُ العَيشِ. وَحينَما يَعصِفُ بي التَّيهُ، وَتَتَقاذَفُني أَمواجُ الضَّياعِ في بَحرِ الحَياةِ المُتَلاطِمِ، تَغدو الكِتابَةُ بَوصَلَتي الوَحيدَةَ الَّتي تَهديني إلى بَرِّ الأَمانِ!

فَالكِتابَةُ لي كَالوَشمِ عَلى الرُّوحِ، وَكَالنَّقشِ عَلى جِدارِ القَلبِ. هِيَ صَوتُ صَمتي، وَصَرخَةُ أَلَمي، وَتَرنيمَةُ فَرَحي. بِها أُحَطِّمُ قُيودَ الصَّمتِ، وَأَكسِرُ حَواجِزَ الخَوفِ، وَأُطلِقُ العِنانَ لِخَيالي لِيُحَلِّقَ في سَماءِ الإبداعِ.

فَلا تَسأَلوني لِمَ أَكتُبُ، بَل اسأَلوني كَيفَ أَحيا دونَ الكِتابَةِ! فَهِيَ رُوحي الَّتي تَسري في جَسَدي، وَنَبضي الَّذي يُحيي قَلبي، وَنوري الَّذي يُضيءُ دَربي في ظَلامِ الحَياةِ.

ألا إنَّ ابنَ آدمَ، في غَفلَةٍ من دَهرِهِ، لا يُدرِكُ جَلالَ ما بَينَ يَدَيهِ مِن نِعَمٍ سابِغَةٍ وآلاءٍ جَزيلَةٍ، حتى تَتَوارى عن ناظِرَيهِ كَسَرابٍ بِقيعَةٍ. فإذا ما انقَشَعَ غِطاءُ الغَفلَةِ، وتَبَدَّدَ ضَبابُ النِّسيانِ، أيقَنَ حينَئِذٍ أنَّهُ قد وَجَبَ عليهِ أن يَستَنفِرَ قُواهُ، ويَستَجمِعَ عَزائِمَهُ، ليَفعَلَ ما يَعجِزُ عنهُ الأَقوياءُ، ويَستَحيلُ على الأَشِدّاءِ، في سَبيلِ التَشَبُّثِ بِتِلكَ النِّعَمِ الزّائِلَةِ، كَما يَتَشَبَّثُ الغَريقُ بِقَشَّةٍ في خِضَمِّ بَحرٍ هائِجٍ.

فَوا أَسَفاهُ على غافِلٍ لم يَعرِف قَدرَ ما أُوتِيَ إلّا بَعدَ فَواتِهِ، ووا حَسرَتاهُ على مُضَيِّعٍ لم يَستَيقِظ مِن سُباتِهِ إلّا وقد هَوى في هُوَّةِ النَّدَمِ وحُفرَةِ الأَسى. فَهَلّا تَنَبَّهَ المَرءُ قَبلَ أن تَزِلَّ قَدَمُهُ، وتَهوي بِهِ في وادي الحَسرَةِ والنَّدامَةِ؟

(61)

أَوَبتُ مُغتَرِبًا ، تَتَنَكَّرُ لي ذاتي كَجَحْفَلٍ مُنهَزِمٍ، وَتَهجُرُني رُوحي كَطَيفٍ في سَرابِ الفَلَواتِ، وَيَجحَدُني فُؤادي كَخِلٍّ غادِرٍ في ساعَةِ العَسرَةِ.

أَمسَيتُ غَريبَ الدّارِ، أَستَوطِنُ دَياجيرَ الظُّلُماتِ كَوَحشٍ ضالٍّ، أَستَجدي نُورَ الفَجرِ كَدَرويشٍ مُتَبَتِّلٍ، أَتَلَمَّسُ دُروبَ الحَياةِ كَأَعمى في مَتاهَةٍ.

صِرتُ نَكِرَةً في عالَمٍ صاخِبٍ، أَقبِضُ على زَنابِقَ الأَمَلِ بِكَفٍّ مُرتَعِشَةٍ، بَينَما أَتَخَيَّلُ بَياضَها كَفَنًا يُواري جَسَدي الفاني!

إنسان ضاعَ في مَتاهاتِ الحَياةِ، يَبحَثُ عَن ذاتِهِ المَفقودَةِ في زَحمَةِ الوُجودِ!

ألا إن نفسي لبحرٌ عميق، تتلاطم أمواجه بهواجس القلق من سبر أغوار العلاقات الإنسانية. فلست كالسراب الذي يلوح للناظرين، بل أنا كالبئر السحيقة التي لا يُدرك قعرها.

إن روحي لمرآةٌ صقيلة، تنقش عليها أدق تفاصيل اللقاءات، حتى لتحفظ نبرة الصوت كما يحفظ الصخر نقش الأزاميل، وتسجل التفاتة العين كما يسجل الرمل آثار الأقدام.

كأنني نسرٌ حاد البصر، يرصد كل حركة وسكنة، ويلتقط كل إشارة وإيماءة. فتغدو ذاكرتي كصحيفةٍ مسطورة، دُوِّن فيها ما دق وجل من أحداث اللقاءات.

إن خوفي من التعمق في العلاقات لكالجبل الراسخ، يقف حائلاً بيني وبين الاندماج مع الآخرين. فكأنني أسيرٌ في سجن من صنع نفسي، قضبانه من فرط الحساسية، وجدرانه من شدة الإدراك.

وإني لأشبه بالغواص الذي يخشى الغوص في لجج البحر، مع أنه يمتلك كل أدوات الغوص. فقدرتي على سبر أغوار النفوس تقف عائقاً أمام انغماسي في خضم العلاقات.

كأن قلبي صفحةٌ بيضاء، تُنقش عليها كل كلمة وحركة بحبرٍ لا يمحى. فأغدو كالنقاش الماهر، الذي يخشى أن يبدأ نقشاً جديداً، خوفاً من أن يفسد جمال الصفحة البكر.

إن عمق إدراكي ليجعلني كالصياد الذي يخشى إلقاء شباكه في البحر، خوفاً من أن يصطاد أكثر مما يطيق حمله. فكل علاقة جديدة تغدو عبئاً ثقيلاً على كاهل روحي المثقلة بالذكريات.

ألا فلتصن جمال نفسك عن أن تدنسه قبائح الآخرين! فإن روحك لؤلؤةٌ مكنونة، لا ينبغي أن تخدشها أظافر الحقد والضغينة.

إن القبح في نفوس بعض الناس كالسموم الزعاف، تسعى للفتك بكل ما هو جميل وطاهر. فكن كالصخرة الصماء التي تتكسر عليها أمواج البغضاء، ولا تدع لها سبيلاً إلى قلبك العامر بالمحبة والصفاء.

لا تجعل من نفسك مرآةً تعكس قبح الآخرين، بل كن كالشمس المشرقة التي تبدد ظلمات الحقد بنورها الوضاء. فإن الجمال الكامن في روحك لهو أثمن من أن تبدده رياح الكراهية العاتية.

كن كالوردة التي تنشر عبيرها حتى لمن يحاول اقتلاعها، ولا تكن كالشوكة التي تجرح كل من يقترب منها. فإن الجمال الحقيقي هو ذلك الذي يصمد في وجه القبح، ويزداد تألقاً كلما حاولوا إخماد نوره.

إن القبح في نفوس بعض الناس لهو كالظلام الذي يسعى لابتلاع النور. فكن أنت ذلك النور الذي يبدد الظلام، ولا تدع ظلمة أرواحهم تطفئ شعلة الجمال المتقدة في قلبك.

لا تسمح لسهام الحقد أن تخترق درع جمالك الروحي، بل كن كالفارس الشجاع الذي يصد كل هجمات القبح بسيف الحكمة وترس المحبة.

إن الجمال في روحك لكنزٌ ثمين، فاحرص عليه حرص الشحيح على ماله. ولا تدع أحداً يسلبك إياه، مهما بلغت قوة قبحهم أو شراسة هجومهم.

كن كالنهر الجاري الذي يغسل كل ما يلقى فيه من أدران، ولا يحمل معه إلا ما هو نقي وصافٍ. فإن الجمال الحقيقي هو ذلك الذي يطهر نفسه ومن حوله من كل قبح وشر.

واعلم أن الجمال الكامن في روحك لهو قبس من نور الخالق، فلا تسمح لظلمات المخلوقين أن تطفئه. بل دع نورك يشع ليبدد ظلمات القبح، ويهدي الحيارى إلى سبيل الجمال والحق.

ألا إن النسيان لنعمةٌ عظيمة، وهبها الباري لبني آدم. فلولا هذا الستر الرقيق الذي يلقيه الزمن على ذاكرة الإنسان، لهلك المرء من فرط ما يعي ويدرك.

إن المرء، لولا هذا البلسم الشافي، لقضى نحبه من تخمة الهموم التي تتكاثر في صدره كتكاثر الجراد. ولسقط صريعاً من ثقل العذاب الذي يجثم على كاهله كجبلٍ راسخ.

وإن الأفكار التي تجول في رأس ابن آدم لأشبه بسيلٍ عرمرم، يكاد يقتلع جذور عقله لولا رحمة النسيان. فهي كالرحى التي تطحن، لا تكل ولا تمل، حتى تكاد تسحق صاحبها سحقاً.

كأن الذاكرة بلا نسيان سيفٌ ذو حدين، يقطع صاحبه قبل عدوه. فالنسيان كالغمد الواقي، يحفظ النصل من أن يؤذي حامله.

ولو أن المرء ظل يتذكر كل ما مر به من أحزان وآلام، لغدا كالشجرة التي أثقلتها الثمار حتى كادت تنقصف. فالنسيان كالريح اللطيفة التي تنفض عن الأغصان ما زاد عن طاقتها.

إن العقل البشري، بدون نعمة النسيان، لأشبه بصحيفةٍ امتلأت سطورها حتى لم يعد فيها موضع لحرفٍ جديد. فيأتي النسيان كالممحاة الرحيمة، يمحو ما عفا عليه الزمن، ليفسح المجال لتجارب جديدة.

ولو بقيت كل التجارب محفورةً في ذاكرة الإنسان كنقشٍ على حجر، لثقل كاهله حتى لا يستطيع النهوض. فالنسيان كالريشة الخفيفة التي تجعل المرء قادراً على الطيران من جديد.

فسبحان من جعل النسيان رحمةً للعباد! إنه كالماء الزلال الذي يغسل أدران الذاكرة، فيعود الإنسان نقياً كيوم ولدته أمه.

وإن في هذا لعبرةً لأولي الألباب. فليحمد المرء ربه على نعمة النسيان، التي تجعل الحياة محتملة، فكذلك النسيان، فسحةٌ من رحمة، تجعل الفضاء رحباً، والحياة ممكنة، والأمل متجدداً.

ألا إنني لمصابٌ بداءٍ عضال، ولعنةٍ لا فكاك منها، يسميها أهل الحكمة "ترك الأثر". فوالله، ما أطيق أن أتخيل رحيلي عن هذه الدنيا الفانية وقد طواني النسيان كما تطوي الريحُ آثار الأقدام على رمال الصحراء.

إن هذا الهاجس ليؤرقني كما يؤرق الظمآن سرابُ الماء في الهجير، ويدفعني دفعاً إلى السعي الحثيث لنحت اسمي في صخر الزمن، كي لا تمحوه أمواج النسيان المتلاطمة.

أجدني كالنقاش الماهر، أسعى جاهداً لترك بصمةٍ في جدار الدهر، بصمةً تتحدى عوادي الزمن وتقف شامخةً أمام رياح الفناء. فكأنما أنا أصارع الموت نفسه، أبتغي خلوداً في عالمٍ كُتب عليه الزوال.

إن هذه اللعنة لتجري في عروقي مجرى الدم، تحثني على بذل الغالي والنفيس في سبيل ترك أثرٍ يشهد على مروري في هذه الحياة. فكأنني أسابق الشمس، أريد أن أترك ضوءاً يبقى ساطعاً حتى بعد غروبي.

والله، إن فكرة الرحيل عن هذه الدنيا دون أن أترك أثراً يذكرني به من يأتي بعدي، لَهي أشد إيلاماً على نفسي من وخز السنان. فكيف يطيب لي العيش وأنا أعلم أن اسمي قد يُمحى من صفحات التاريخ كما تُمحى النقوش من على الرمال، فليس الموت إلا أن تُنسى، وليست الحياة إلا أن تُذكر.

ألا إنني أنأى بنفسي عن مخالطة أولئك النفر الذين يُلجئونني إلى حالٍ من الذود الدائم، كأنني في ساحة وغى لا تنقطع. فوالله، ما أطيق صحبة من يجعلني أقف موقف المدافع المستميت عن أفكاري السامية، وعن مقاصدي النبيلة، وعن ذاتي الكريمة، وعن حقوقي المشروعة، وعن آمالي المعقودة.

إن مجالسة هؤلاء لَكالسير في أرضٍ ذات شوك، تدمي القدمين وتُنهك الروح. فكيف يطيب العيش مع من يجعل المرء في حالة استنفارٍ دائم، كأنه في معركةٍ لا هوادة فيها؟

والله، إن الحياة أثمن من أن تُقضى في مقارعة الحجج وتفنيد الشبهات. فلأنأينَّ بنفسي عن كل من يجعلني أسلُّ سيف الكلام دفاعاً عن بديهيات وجودي ومسلمات كياني.

إن المرء ليحتاج إلى رفقةٍ تُشرح بها الصدور، لا إلى صحبةٍ تُقبض معها النفوس. فما جدوى الخُلطة التي تجعل المرء في حالة ترقبٍ وحذر، كأنه يسير في أرض الأعداء، فالحياة أقصر من أن تُقضى في الدفاع عن البديهيات، وأجلُّ من أن تُهدر في تبرير المسلَّمات.

تَنَبَّهتُ في الآونة الأخيرة إلى حقيقةٍ جلية، مفادُها أنَّ المرءَ كلما كَظَمَ أحزانَه وكدَّسها في أعماقِ نفسِه، كلما استحالت تدريجياً إلى أوجاعٍ جسمانيةٍ تَنخَرُ في كيانه. فَوا عَجَباً لِهَشاشةِ ابنِ آدم حين يَحسَبُ أنَّ الكِتمانَ ضَربٌ من ضروبِ الظَّفَرِ، بينما هو في حقيقةِ الأمرِ أعظمُ نكسةٍ قد يَجترِحُها بحقِّ ذاتِه.

إنَّ المرءَ الذي يُوارِي أحزانَه خلفَ سُترِ الصَّمتِ، لَكَمَن يَحفِرُ لنفسِه قبراً من الألمِ والحَسرة. فالحُزنُ المكبوتُ كالنارِ تحتَ الرَّماد، تَزدادُ اشتعالاً كلما حاولتَ إخمادَها.

ألا فليعلمِ الغافِلُ أنَّ الكَتمَ ليس من شيَمِ الأقوياء، بل هو مَسلَكُ الضُّعفاءِ الذين يَخشونَ مواجهةَ أنفسِهم. فالقوةُ الحقيقيةُ تَكمُنُ في مُصارَحةِ النفسِ ومُكاشَفَتِها، وفي البَوحِ بما يَعتَلِجُ في الصدورِ من هُمومٍ وأحزان.

إنَّ مَن يظنُّ أنَّ كَبتَ المشاعرِ انتصارٌ، لَهو كَمَن يَحسَبُ السرابَ ماءً. فالانتصارُ الحقيقيُّ يكمنُ في مواجهةِ الذاتِ بكلِّ ما فيها من ضعفٍ وقوة، ومن فرحٍ وحزن.

الصدق مع النفسِ هو أولُ خطواتِ العلاجِ، والشجاعة الحقيقية تكمنُ في مواجهةِ أحزانِكَ، لا في الفرارِ منها.

رهبة تعتريني وفزع يستبد بفؤادي، حين أفكر في خداع البشر وزيف مظاهرهم. فلعمري، إن الابتسامة التي تراها العين قد تخفي في طياتها سماً زعافاً وحقداً دفيناً. وإن المرء ليبلعُ حين يُفضي بمكنون صدره، غافلاً عن عينٍ ترصده، وأذنٍ تلتقط هفواته.

الداهية الدهياء ليست في أذى بني آدم فحسب، بل في أنك خُلقت على الفطرة السليمة، نقياً لا تعرف المكر ولا تجيد التلون كحرباء الصحراء. المصيبة العظمى تكمن في أنك تعامل القوم بصفاء النية وطهر السريرة، بينما هم أقرب إلى الذئاب الضارية منهم إلى الحملان الوديعة.

إنَّ الذِّكرياتِ السَّوداءَ قَد تَآمَرَت عَلَيَّ كَتَآمُرِ الغِربانِ عَلى فَريسَةٍ وَحيدَة. تَنعَقُ في أَروِقَةِ عَقلي، تَنهَشُ سَكينَتي بِمِنقارِها الحادِّ، وَتَخدِشُ صَفحَةَ قَلبي بِمَخالِبِها المَسمومَة.

كَأَنَّ الزَّمَنَ قَد وَقَفَ عِندَ تِلكَ اللَّحَظاتِ المُظلِمَة، يُعيدُها عَلَيَّ كَدَوَرانِ الرَّحى، تَطحَنُ فَرَحي وَتَسحَقُ آمالي. فَأَغدو كَالأَطلالِ الباليَة، يَقِفُ عَلَيها الحُزنُ باكِياً، وَيَرثيها الأَسى مُتَحَسِّراً.

وا عَجَباً لِعَقلٍ يَتَشَبَّثُ بِما يُؤذيه! كَأَنَّهُ ظَمآنٌ يَشرَبُ مِن بَحرٍ مالِح، فَلا يَزدادُ إِلّا عَطَشاً وَأَلَماً. تَتَراقَصُ الذِّكرياتُ المُرَّةُ أَمامَ عَينَيَّ كَسَرابٍ خادِع، فَأَسعى إِلَيهِ لاهِثاً، وَما هُوَ إِلّا وَهمٌ يَزيدُني حُزناً عَلى حُزن.

فَيا نَفسُ، مَتى تَتَحَرَّرينَ مِن أَسرِ الماضي؟ وَيا قَلبُ، مَتى تَنفُضُ عَنكَ غُبارَ الذِّكرى المُؤلِمَة؟ لَعَلَّ في الغَدِ فَرَجاً، وَفي الأُفُقِ شَمساً تُبَدِّدُ ظَلامَ الحُزنِ الجاثِمِ عَلى صَدري.

أَلا هَلْ لِلزَّمانِ مِنْ عَوْدَةٍ؟ وَهَلْ لِلأَيّامِ الخَوالي مِنْ رَجْعَةٍ؟ وَاللهِ إنَّ الذِّكْرياتِ لَتَنْهَشُ القَلْبَ نَهْشَ الذِّئابِ، وَإنَّ الحَنينَ لَيُضْرِمُ في الصَّدْرِ نارًا تَفوقُ حَرَّ الهَجيرِ. فَيا أَيُّها الرّاحِلونَ، هَلْ تَذْكُرونَ عَهْدًا مَضى كَالبَرْقِ الخاطِفِ؟ وَيا أَيُّها الباقونَ، هَلْ تَحْفَظونَ وُدًّا يَبْقى رَغْمَ الزَّمانِ الجافي؟ أَمْ أَنَّ القُلوبَ قَدْ قَسَتْ، وَالعُهودَ قَدْ نُسِيَتْ، وَالوِصالَ قَدْ انْقَطَعَ؟ فَمَنْ لِلقَلْبِ المَكْلومِ يُداويهِ، وَمَنْ لِلرّوحِ الظَّمْأى يَسْقيها؟

(71)

ما ذَنْبي إنْ كانَ الجُرْمُ يَنْهَشُني نَهْشَ الذِّئابِ لِلفَريسَةِ، وَالحُزْنُ يُرْديني إرْداءَ السَّيْفِ لِلرِّقابِ، وَالهَمُّ يَقْتُلُني قَتْلَ السُّمِّ لِلأَحْشاءِ؟! فَوَحَقِّ مَنْ فَلَقَ الحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، ما ذَنْبي إنْ كانَ عَقْلي قَدْ تَجَرَّدَ مِنَ الرَّحْمَةِ تَجَرُّدَ الصَّحْراءِ مِنَ الماءِ، وَجِراحي تَأْبى النِّسْيانَ إباءَ الجِبالِ لِلزَّوالِ؟! ما ذَنْبي إنْ كانَ قَلْبي يُؤَنِّبُني وَضَميري يُرْهِقُني إرْهاقَ السَّيْلِ لِلأَشْجارِ؟!

نَذَرْتُ عَلى نَفْسي نِسْيانَ ما مَضى، وَعاهَدْتُ رُوحي أَنْ أَطْوِيَ صَحائِفَ الأَيّامِ الخَوالي. فَما بالُ قَلْبي يَنْكُثُ عَهْدَهُ، وَيَنْقُضُ وَعْدَهُ؟ ما لَهُ يَنْبُشُ في صَفَحاتِ الماضي كَما يَنْبُشُ الذِّئْبُ جِيَفَ الفَلَواتِ؟ وَما لَهُ يُفَتِّشُ في ثَناياهُ كَما يُفَتِّشُ الصَّيّادُ عَنْ فَريسَتِهِ في أَدْغالِ الغاباتِ؟

وَاهًا لِقَلْبي! ما لَهُ كُلَّما مَرَّ طَيْفُهُمْ يَنْهَمِرُ كانْهِمارِ السَّحابِ، وَتَنْهَمِلُ دُموعُهُ كانْهِمالِ الوابِلِ؟ ما لَهُ يَسْقي رَياحينَ الذِّكْرياتِ بِدَمْعِهِ، فَتَنْمو وَتَزْدَهِرُ كَما تَنْمو الأَزاهِرُ في رَبيعِ الوِهادِ؟

إِنَّ قَلْبي لَكالأَرْضِ القاحِلَةِ، كُلَّما ظَنَنْتُ أَنَّها قَدْ جَفَّتْ، عادَتْ تُنْبِتُ ذِكْرياتٍ تَنْمو كَالأَشْواكِ في صَدْري. هَلْ لِهَذا القَلْبِ مِنْ دَواءٍ يُبْرِئُهُ مِنْ داءِ الحَنينِ، أَمْ أَنَّهُ قَدْ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَظَلَّ أَسيرَ الماضي، يَجْتَرُّ آلامَهُ وَأَحْزانَهُ حَتّى يَقْضِيَ نَحْبَهُ؟

لَمْ أَذُقْ طَعْمَ الابْتِسامِ الصَّادِقِ يَوْمًا، وَلَمْ أَعْرِفْ لِلْبَسْمَةِ الخالِصَةِ سَبيلًا. إنَّ عَضَلاتِ فَمي لَتَنْتَفِضُ انْتِفاضَ الْمَلْدوغِ، وَتَتَشَنَّجُ تَشَنُّجَ الْمَصْروعِ، كُلَّما هَمَمْتُ بِمُحاوَلَةِ رَسْمِ بَسْمَةٍ عَلى مُحَيّايَ.

لَكَأَنَّ أَوْتارَ وَجْهي قَدْ شُدَّتْ بِحِبالِ الهُمومِ، وَكَأَنَّ عَضَلاتِ ثَغْري قَدْ تَيَبَّسَتْ كَتَيَبُّسِ الْجِلْدِ فِي الهَجيرِ. فَما عادَ لِلْبِشْرِ إلى وَجْهي مَسْلَكٌ، وَلا لِلسُّرورِ إلى قَسَماتي مَنْفَذٌ.

وَإِنّي لَأَعْجَبُ مِنْ حالي هَذِهِ عَجَبًا، فَقَدْ صارَ التَّجَهُّمُ لِوَجْهي سَجِيَّةً، وَالعُبوسُ لِمُحَيّايَ طَبيعَةً. وَكَأَنَّ الدَّهْرَ قَدْ نَحَتَ عَلى وَجْهي أَخاديدَ الحُزْنِ، فَأَضْحى كَالصَّخْرِ الصَّلْدِ لا يَلِينُ، وَكَالْجَلْمودِ الصُّلْبِ لا يَنْثَني.

(74)

أنا في خِضَمِّ الحربِ أبحثُ عن سلام، أتلمَّسُ الحياةَ بين أنيابِ الرَّدى. أنشدُ الطُّمأنينةَ في قلبٍ مُثخَنٍ بجراحاتِ الزمانِ وأوجاعِ الأيامْ. كطائرٍ يبني عُشَّهُ في عينِ الإعصارْ، أبني أحلامي على أنقاضِ الأحلامْ؛ أستلُّ من رمادِ الماضي بذورَ الأملْ، وأغرسُها في تربةِ الحاضرِ لتُثمِرَ غدًا أحلى الثمارْ.

أنا كغيمةٍ مثقلةٍ بأمطارِ الهمومِ، أسكبُ حبرَ قلبي على صفحاتِ الورقِ، لعلَّ الكلماتِ تُخفِّفُ وطأةَ هذا القلقِ المتكدِّسِ في صدري. أتنفَّسُ الحروفَ، عسى أن تطردَ زفراتي أشباحَ الماضي الأليمِ التي تُطاردُني.

كأنَّ الزمنَ قد توقَّفَ، فرغمَ مرورِ الأيامِ والليالي، ما زلتُ أتحسَّسُ رضوضي كأنَّها وُلِدَت للتو. أنا سجينُ ذاكرتي، أتعذَّبُ في زنزانةِ الألمِ، عاجزٌ عن كسرِ قيودِ ما حدثَ.

أرتدي قناعَ السعادةِ، أكذبُ على نفسي وعلى العالمِ، أمثِّلُ دورَ الإنسانِ السويِّ. لكنَّ كلَّ ذكرى تزلزلُ أركاني، فترتعدُ أوصالي كأوراقِ الخريفِ، وتصطكُّ أسناني كطبولِ الحربِ، وتسري في جسدي رعشةٌ من قمَّةِ رأسي إلى أخمصِ قدمي كسريانِ السُّمِّ في العروقِ.

أنوءُ تحتَ ثِقلِ هذا الحملِ، كأنَّني أطلسُ يحملُ الكونَ على كتفيهِ. أرتعدُ من فكرةِ أنَّ هذا العبءَ قد يُرافقني إلى الأبدِ! ليتَهُ يغادرُني وينساني، لكنَّه يتشبَّثُ بي تشبُّثُ الطفلُ بأمِّهِ. وهل تستطيعُ الأمُّ نسيانَ ابنَها؟

أَستَشعِرُ في أَعماقِ فُؤادي أَنَّ الخَلائِقَ قَد تَناسَتني، حَتّى مَن ظَنَنتُهُم خِلّانَ الصِّدقِ وَرِفاقَ الدَّرب طالَما خالَجَ هَذا الشُّعورُ نَفسي في خَفايا الضُّلوع، لَكِنّي وارَيتُهُ في ظُلُماتِ الصَّدرِ، وَهِبتُ أَن أَبوحَ بِهِ جَهرًا. وَاليَومَ، إذ أُطلِقُ لِلساني العِنان، وَأَكشِفُ عَن مَكنونِ الفُؤاد، أُدرِكُ تَمامَ الإدراكِ حَجمَ الأَلَمِ المَدفونِ في ثَنايا الرُّوح عَلى الرَّغمِ مِن أَنّي أَمُدُّ يَدَ العَونِ لِلجَميع، وَأَبذُلُ الغالي وَالنَّفيس، فَلا أَحَدَ يَلتَفِتُ إِلَيَّ – وَلَو كِذبًا أَو تَصَنُّعًا – كَأَنّي سَرابٌ في صَحراءَ قاحِلَة، أَو طَيفٌ يَمُرُّ في لَيلٍ بَهيم أَمنَحُ الدِّفءَ لِلجَميعِ كَالشَّمسِ، لَكِنّي أَحتَرِقُ وَحدي في صَمتٍ أَليم.

أَيُّها الدَّهرُ، يا مَن أَذَقتَني مَرارَةَ الوَحدَةِ وَسُمَّ التَّجاهُل هَل سَيَأتي يَومٌ أَجِدُ فيهِ مَن يُنصِتُ لِشَكواي، وَيُبلِسِمُ جِراحَ رُوحي الثَّكلى؟ أَم سَأَظَلُّ كَالغَريبِ في وَطَني، وَالمَنسِيِّ بَينَ أَهلي وَعَشيرَتي أُعطي وَلا آخُذ، أَسعَى وَلا أَلقى، أُنادي وَلا أَسمَعُ إِلّا صَدى صَوتي؟

وا أَسَفاه عَلى قَلبٍ يَفيضُ بِالحُبِّ، لَكِنَّهُ لا يَلقى إِلّا الصُّدودَ وَالهِجران، وا حَسرَتاه عَلى رُوحٍ تَتوقُ لِلتَّواصُل، لَكِنَّها تَصطَدِمُ بِجُدرانِ النِّسيانِ وَالنُّكران!

حينَ أُوَلّي وَجهَي شَطرَ الأمسِ البائدِ، تَتَراءى لي أطيافُ الماضي كَسَرابٍ خَلّابٍ في بَيداءِ الزَّمَنِ القاحِلَة. تَتَجَسَّدُ أمامَ ناظِرَيَّ صُوَرٌ من غابِرِ الأيّامِ، كَخَيالاتٍ حالِمَةٍ تَعبُرُ صَفحَةَ الرُّوحِ الصَّقيلَة، ثُمَّ تَتَلاشى في دَياجيرِ النِّسيانِ السَّحيقَة.

أرنو إلى تِلكَ المَشاهِدِ بِعُيونٍ جَلَتها صَروفُ الدَّهرِ وصَقَلَتها تَجارِبُ الحَياةِ، فأُبصِرُ الألوانَ قد تَبَدَّلَت، والظِّلالَ قد تَغَيَّرَت. تَهمِسُ لي تِلكَ الصُّوَرُ بِلِسانِ الحِكمَةِ الناطِق، تُعَلِّمُني أنَّ ما قد وَلّى لن يَعودَ، وأنَّ عَجَلَةَ الزَّمَنِ لا تَعرِفُ النُّكوصَ والارتِداد.

أيُّها الزَّمانُ، يا مَن تَمضي كالسَّهمِ المارِقِ من القَوسِ المُوَتَّر! سأنقُشُ صورَتَكَ على صَفَحاتِ النِّسيانِ الخاوِيَة، كأزاهيرَ في بُستانٍ مَهجورٍ، تَنتَظِرُ أوانَ تَفَتُّحِها في مَوسِمٍ قد لا يَأتي. سأحبِسُ عَبَراتي وأشجاني في سِفرٍ لا عُنوانَ لَه، يَروي قِصَّةَ فُؤادٍ مُثخَنٍ بالجِراح، ورُوحٍ أَضناها الوَجدُ والأَسى.

لَن أَرتَدَّ إلى ما فات، فَالأَمسُ قَد أَضحى كَالخَيالِ الزّائِل. لَن يَكونَ لي مَعَهُ وِصالٌ، فَقَد حالَ بَينَنا نَهرُ الزَّمَنِ الهادِرُ بِأَمواجِهِ العاتِيَة.

وها أَنا ذا أَمضي في دَربي، مُتَدَرِّعًا بِدُروعِ التَّجارِبِ، مُتَقَلِّدًا سُيوفَ الحِكمَةِ والمَعرِفَة، أَستَقبِلُ الغَدَ بِفُؤادٍ ثابِتٍ وعَزيمَةٍ لا تَلين، مُوقِنًا أَنَّ في ثَنايا المُستَقبَلِ آمالًا باسِمَةً وأَحلامًا وَضّاءَة، تَنتَظِرُ مَن يُحَقِّقُها ويُجَسِّدُها عَلى أَرضِ الواقِع.

منذُ أن فتحتُ عيني على هذه الدنيا الغادرة، وأنا أجاهد في مضمار الحياة، أروم إظهار جوهري، إبراز ذاتي، وإثبات مقدرتي الفذّة. خططتُ بيراعي حتى كادت أناملي تَكِلّ، ونهلتُ من معين العلم حتى كاد فؤادي ينفجر. بيد أنَّ هذه الدنيا الخؤون، في كل مرةٍ تنبذني كما تُنبَذُ النواة أو كما تُنبَذُ الجيفة، ويعرض عني الخلق أجمعون إعراض النجوم عن ضوء النهار، كأنني ظلٌّ زائلٌ أو سرابٌ خادع ونسمة لا تحسّ.

ما برحتُ أتخبط في دياجير الحيرة، لا أدري لِمَ تلفظني الدنيا من رحمها، ولا أفقهُ علة نفور الناس مني نفور الغزال من زئير الأسد، وربُّ العزة يشهد أنني لست بالطالح الذي يستحق هذا النبذ والإقصاء.كلُّ ما أصبو إليه، وغاية ما أرنو لبلوغه، هو أن يستشعر الناسُ وجودي، فيقرّوا بكينونتي، ويعترفوا بحضوري ظهرانيهم.

في خِضَمّ مَعمَعَةِ الوُجودِ، تَنبَثِقُ مِن أَعماقِ رُوحي زَفرَةٌ حَرّى، تُناجي الأَقدارَ بِصَمتٍ مُلتاعٍ. أَتَوقُ إلى سَماءٍ صافِيَةٍ، خالِيَةٍ مِن غُيومِ الهَمّ الثِّقالِ، وَإلى أَرضٍ تَفيضُ بِعَبيرِ الوُرودِ، لا بِوَخزِ الأَشواكِ القاسِيَةِ.

يا لَيتَ فَجري يَنبَلِجُ دونَ أَن يُثقِلَ رَأسي صُداعُ الأَرَقِ المُضني، وَيا لَيتَ ضَحِكاتي تَتَدَفَّقُ كَشَلّالٍ عَذبٍ، لا يُعَكِّرُ صَفوَها شَبَحُ البُكاءِ المُتَرَبِّصِ. أَتَمَنّى لَو كانَت ابتِسامَتي مِرآةً صادِقَةً لِفَرَحٍ حَقيقِيٍّ، لا قِناعاً يُخفي خَلفَهُ أَنيناً مَكتوماً.

آهٍ، لَو أَنَّ الحَياةَ كانَت رَفيقَةً حانِيَةً، تَعرِفُ خَباياي وَأَسراري، تُواسيني بِلَمسَةٍ حانِيَةٍ على كَتِفي المُتعَبِ، بَدَلاً مِن أَن تَكونَ مُعَلِّمَةً قاسِيَةً، تُنزِلُ عَلَيَّ سِياطَ دُروسِها المُؤلِمَةِ، مُتَذَرِّعَةً بِأَنَّ هَذا العِقابَ هُوَ عَينُ الرَّحمَةِ.

لَكِنَّني أُدرِكُ، في قَرارَةِ نَفسي المُتَأَلِّمَةِ، أَنَّ هَذِهِ الأُمنِياتِ ما هِيَ إِلّا سَرابٌ يَتَراءى لِظامِئٍ في صَحراءِ الحَياةِ. فَالوُجودُ، بِكُلِّ تَناقُضاتِهِ وَقَسوَتِهِ، هُوَ المِحَكُّ الَّذي يَصقُلُ جَواهِرَ أَرواحِنا، وَيُكسِبُها بَريقاً لا يَخبو.

أَمضي، مُتَرَنِّحاً بَينَ ثِقَلِ الواقِعِ وَخِفَّةِ الحُلمِ، أَحمِلُ في قَلبي شُعلَةَ الأَمَلِ، عَسى أَن تُنيرَ لي دَرباً وَسطَ ظُلمَةِ هَذِهِ الحَياةِ العَصِيَّةِ على الفَهمِ.

في دهاليزِ العِشرينات، تَتَلاطَمُ أَمواجُ الذَّاتِ المُتَشَظِّيَةِ، كَأَنَّها شَذَراتُ مِرآةٍ مُحَطَّمَةٍ، تَعكِسُ صُوَراً مُتَناقِضَةً لِكَينونَةٍ مُتَمَرِّدَةٍ. أَتَخَبَّطُ في مَتاهَةِ الهُوِيَّةِ، أَتَلَمَّسُ جُدرانَ وُجودي بِأَصابِعَ مُرتَعِشَةٍ، وَكُلَّما ظَنَنتُ أَنَّني أَدرَكتُ جَوهَري، تَبَخَّرَ كَسَرابٍ خادِعٍ.

هَمساتٌ أَلفِيَّةٌ تَتَصارَعُ في أَعماقِ رُوحي، كَجَوقَةٍ مِن أَصواتٍ مُتَنافِرَةٍ، كُلُّ صَوتٍ يَدَّعي أَنَّهُ الحَقيقَةُ النّاصِعَةُ. أَأَنا هَذا الَّذي يَكتُبُ، أَم أَنَّني مُجَرَّدُ قَناةٍ لِصُراخِ الأَجيالِ الصّامِتَةِ؟ أَتَساءَلُ، وَالسُّؤالُ يَتَناسَلُ كَخَلايا سَرَطانِيَّةٍ في عَقلي المُضطَرِبِ.

في هَذا البَرزَخِ بَينَ الطُّفولَةِ وَالنُّضجِ، أَقِفُ مُتَرَنِّحاً على حافَّةِ الهاوِيَةِ، أَتَأَرجَحُ بَينَ اليَقينِ وَالشَّكِّ، بَينَ الإقدامِ وَالإحجامِ. كُلُّ كَلِمَةٍ أَخُطُّها قَد تَكونُ صَرخَةَ رُوحي الحَقيقِيَّةِ، أَو صَدى لِصَوتٍ غَريبٍ يَتَسَلَّلُ إلى أَعماقِ كِياني.

أَمضي، حامِلاً في جَعبَتي آلافَ الاحتِمالاتِ، مُتَرَنِّحاً بَينَ حَتمِيَّةِ الوُجودِ وَعَبَثِيَّةِ المَعنى، أَبحَثُ عَن ذاتي في مَتاهَةِ الكَلِماتِ، عَلَّني أَجِدُ في ثَناياها بَصيصَ نورٍ يُنيرُ دَربي في ظُلمَةِ هَذا العَصرِ المُتَقَلِّبِ.

اعتَلَيتُ صَهوَةَ مسرحِ الحَياةِ مُتَهَلِّلاً، أَركُضُ رَكضَ الظِّباءِ في مَراتِعِ الصِّبا، مُنقاداً خَلفَ نَزَواتِ الشَّبابِ وَطَيشِهِ كَما يَنقادُ القَطيعُ خَلفَ راعيهِ. لَوَّحتُ بِيَدَيَّ تَلويحَ الوادِعِ لِمَن عَرَفتُهُم، وَنَثَرتُ البَسَماتِ وَالقُبَلَ نَثرَ الغَمامِ لِقَطَراتِ المَطَرِ. بَيدَ أَنَّ الحَياةَ، تِلكَ العَجوزُ الشَمطاءُ، وَقَبلَ أَن يَنبَسَ لِساني بِحَرفٍ مِن نَصّي المَحفوظِ، قَذَفَت بي خارِجَ المَسرَحِ قَذفَ النَّوى. لَم تَتَفَضَّل عَلَيَّ بِإيضاحٍ، وَلَم تُصَرِّح بِإخفاقي، لَكِنَّ الطَّريقَةَ الَّتي نُبِذتُ بِها كانَت أَبلَغَ مِن خُطبَةِ قُسٍّ وَأَفصَحَ مِن بَيانِ سَحبانَ.

تَتَراقَصُ أَطيافُ الذِّكرياتِ في سَماءِ رُوحي المُثقَلَةِ، كَأَسرابِ طُيورٍ مُهاجِرَةٍ تَحُطُّ عَلى شَواطِئِ الوَعيِ ثُمَّ تَرحَلُ. تَتَناثَرُ نُجومُ الأَحلامِ في لَيلِ عَينَيَّ الحالِكِ، كَشَرارٍ يَتَطايَرُ مِن مَوقِدِ الأَمَلِ، يُضيءُ دَياجيرَ الوَحدَةِ بِوَميضٍ خافِتٍ، يَكادُ يَخبو ثُمَّ يَستَعِرُ. أُصغي بِآذانِ رُوحي، فَأَسمَعُ هَمسَ الرّيحِ يَعزِفُ عَلى أَوتارِ قَلبي المَكسورِ سِمفونِيَّةً شَجِيَّةً، تُوقِظُ في أَعماقي حَنيناً دَفيناً لِعالَمٍ مَجهولٍ. أَستَنشِقُ عَبَقَ الحُبِّ المَمزوجَ بِشَذى التُّرابِ بَعدَ زَخّاتِ المَطَرِ، فَيَسري في عُروقي كَإِكسيرِ الحَياةِ: عَذبٌ وَمُسكِرٌ، مُحيٍ وَمُميتٌ في لَحظَةٍ واحِدَةٍ. أَقِفُ عَلى بَرزَخٍ بَينَ الحُلمِ وَالحَقيقَةِ، شامِخاً كَطَودٍ يُعانِقُ السَّحابَ، مُتَرَقِّباً فَجراً جَديداً يَغسِلُ رُوحي بِنورِهِ الوَضّاءِ، وَيُطَهِّرُ قَلبي مِن أَدرانِ الماضي وَأَوهامِ الحاضِرِ.

ليتَ حياتي أَيسَرُ مَسلَك، وَطَريقي أَسهَل مَرتَقى. أَتَوقُ إلى دَربٍ خالٍ مِنَ العَثَراتِ، وَمَسيرٍ لا تَعتَرِضُهُ العَقَباتُ. ليتَ الأرضَ تحتَ قدميَّ تفيضُ بروضة غَنّاء مَفروشَةٌ بِالزَّهرِ النَّضِرِ، لا بوخزِ الأشواكُ والعَوسَجُ. لَيتَ فَجري يَنبَلِجُ دونَ صداعٍ يَنخَرُ رأسي، نَتيجَةَ لَيلٍ طَويلٍ قَضَيتُهُ أُصارِعُ الأَرَقَ العَنيدَ. لَيتَ ضَحِكاتي تَتَدَفَّقُ كَشَلّالٍ عَذبٍ، لا يُعَكِّرُ صَفوَها شَبَحُ البُكاءِ المُتَرَبِّصِ. ليتَ ابتِسامَتي مِرآةٌ صادِقَةٌ لِفَرَحٍ حَقيقِيٍّ، لا قِناعًا يُخفي خَلفَهُ أَنينًا مَكتومًا. ليتَ الحَياةَ كانَت رَفيقَةً حانِيَةً، تَعرِفُ خَباياي وَأَسراري، تُواسيني بِلَمسَةٍ حانِيَةٍ على كَتِفي المُتعَبِ، بَدَلاً مِن أَن تَكونَ مُعَلِّمَةً قاسِيَةً، تُنزِلُ عَلَيَّ سِياطَ دُروسِها المُؤلِمَةِ، مُتَذَرِّعَةً بِأَنَّ هَذا العِقابَ هُوَ عَينُ الرَّحمَة. أيا دهرُ! أوأنا مُجبَرٌ على مُكابَدةِ الصِّعابِ حتى أَلقى حِمامَي؟

أيها الليل الحالك، يا رداء الظلام الدامس، اسمع شكواي وأنصت لنحيبي. فإني غريب في أوطاني، منبوذ بين خلاني، أسير في قيود مجتمع جاهل، يكبل روحي ويخنق أحلامي.

يا للعجب! كيف صار الجهل نبراساً، والتخلف منهاجاً، والظلم دستوراً؟ أين المروءة والشهامة؟ أين الحكمة والفطنة؟ لقد غدونا كالأنعام بل أضل سبيلاً، نرتع في مراتع الغباء، ونشرب من مناهل الضلال.

واحسرتاه على شباب يذوي في مهده، وآمال تتبخر في لحظة ميلادها! كم من نفس أبية دفنت طموحاتها تحت ركام التقاليد البالية، وكم من عقل نير أطفأ شعلته صرصر الجهل العاتي!

إني أرثي لحالي ولحال أترابي، نحن أبناء هذه الأرض المنكوبة. نحمل في صدورنا براكين من الغضب، وفي عيوننا أنهاراً من الدموع. نتوق للتحليق في سماء الحرية، لكن أجنحتنا مقصوصة بمقص الرجعية.

آه يا وطني! يا من كنت مفخرة ومأملاً، كيف صرت اليوم عاراً وحملاً ثقيلاً؟ إن الانتماء إليك لم يعد شرفاً يُعتز به، بل أضحى قيداً يثقل الكاهل ويدمي القلب.

فيا أحلامي الذابلة، ويا آمالي المحتضرة، سامحيني إذ لم أستطع إنقاذك من براثن هذا الواقع المرير. وداعاً أيتها الطموحات الجريحة، وداعاً أيها المستقبل المشرق الذي لم يولد. سأظل أذكرك ما حييت، وأبكيك ما دمت حياً.

سيأتي يومٌ تدرك فيه أنك قد بلغت عتبة العشرين من عمرك، وكأنما بالأمس القريب كنت طفلاً يافعاً في العاشرة من سنك. حينها، سيعجز لسانك عن وصف كيف انقضى عقدٌ كامل من الزمان، وكيف انشطرت حياتك إلى شطرين: ما قبل وما بعد.

ستخبو جذوة غضب الشباب المتأجج، وفي حقيقة الأمر، لن يتبدل شيء في جوهره، ولكن كل ما حولك سيبدو مغايراً لما عهدته. عندما تقع عيناك على صورك العتيقة والمقاطع المصورة الضبابية التي التُقطت لك في غابر الأيام، ستجد فيها ما يوقظ في نفسك ذكريات الطفولة الغضة، ستتذكر بعض الأصدقاء الذين فقدتهم في زحمة الحياة.

سيتحول التسكع العابث إلى لمّ شملٍ يُنعش الروح، وسيغدو طعام والدتك المحروق أشهى مأكولٍ ذقته يوما. وسيأتي يومٌ لن تتمكن فيه من استعادة أي شيء من تلك السنوات العشر الخوالي، ولكني أتمنى أن تتذكر أن تلتقط أنفاسك وتُطلق سراح تلك العقدة المحشوة في صدرك.

يتحتم عليك أن تخرج من قوقعتك وتغتنم لحظات الحياة، وتستمتع بأشعة الشمس البهية المتلألئة، وأن تعيش حياتك بكل ما أوتيت من قوة. فاغتنم يومك، لأنك في غمضة عين ستجد نفسك بلغت الثلاثين من عمرك.

تلك الآمال التي ترعرعت في أحضان صدورنا وتنامت مع سنين العمر لم تكن محض أوهام عابرة، بل غدونا جزءًا لا يتجزأ من نسيجها، وليس العكس. بيد أنني واريتها الثرى قسرًا، مكلومَ الفؤاد، أرغمني على ذلك دهرٌ عاتٍ جائر.

لا يزال ذاك الصبي القابع في أعماقي يراني رائد فضاء أخطو على سطح القمر بخطى واثقة، وكلما أسدل الليل ستائره وأطل القمر بوجهه الباسم، أسمعه ينتحب بحرقة. ما برحتُ أجوب الآفاق باحثًا عن موطئ قدم في عالم لم يعد يحتضن أمثالي.

أمنياتي التي واظبت على سقيها بدموع الأمل ذوت وتلاشت، يبدو أنني أفرطت في الاهتمام بها حتى خنقتها بفرط عنايتي. كدحتُ في أرض الحياة الصلدة بمحراث من خشب، وها أنا ذا أحصد ثمار عنائي ألمًا وحسرة.

ما زلتُ أروض نفسي الأبية وأهذبها، أسبر أغوارها الغامضة وألملم شتاتها المبعثر، أنقب في دهاليزها المظلمة وأستر عيوبها الجلية. فكيف لي أن أعري ذاتي أمام أعين العالم الفاحصة، وأنا ما زلت أتلمس طريقي في دروب الحياة الوعرة؟

الحياة سيفٌ مسلولٌ، حدُّهُ الأيام وغمدُهُ الأجل. يُشهَرُ في وجه كل حيٍّ، فمن أحسن صقله بمسنِّ العزم، وجلاه بصفاء النية، قطع به حبال العوائق، وشق طريقه إلى المجد. ومن تركه يصدأ بذلِّ الكسل، وغشاه بظلمة الجهل، كلَّ نصلُه عن قطع أغلال الهوان، فصار في يده كالعصا في يد الأعمى.

نصلُه يلمع بوميض الآمال، وقبضته تَزلق بعَرَق الكدح. من أحكم الإمساك به فاز بالغنيمة، ومن ارتعشت يده فقد خسر المعركة. يُسقى بماء العزيمة، ويُطعم بخبز التجارب. إن أُغمِد في جوف الجبن صدئ وتآكل، وإن أُشهر في وجه التحديات تألق وبرق.

هو ميزانٌ دقيق، كفتاه النجاح والإخفاق، ولسانه سعي الإنسان. من ثقُل عزمه رجحت كفة ظفره، ومن خفَّ همُّه مالت به كفة خسرانه. يُعلِّق عليه كل إنسان آماله، ويناط به مصير كل حي، فمن أحسن استخدامه قطف ثمار النجاح، ومن أساء حمله جنى مرارة الخيبة.

أَلا يا لَلعَجَبِ! كُلَّما خَطَوتُ خُطوَةً، تَقَهقَرتُ خُطوَتَينِ! وَالعُمرُ يَجري كَفَرَسٍ جامِحٍ، سابِقًا السِّنينَ وَالأَعوامَ!

فَتِيٌّ أَنا في ظاهِري، وَلَكِن في باطِني شَيخٌ هَرِمٌ! لي أَجنِحَةُ النَّسرِ، وَلَكِنّي في قَفَصِ الذُّلِّ مَحبوسٌ! مَجروحٌ أَنزِفُ طُموحًا، وَبِدَمي أَخُطُّ كَلِماتي وَأَبوحُ!

أَسرَحُ في خَيالي، لَعَلّي نَجمٌ سَاطِعٌ، وَلَكِن أَينَ السَّماءُ لِتَحتَضِنَني؟ لي أَجنِحَةُ العُقابِ، وَلَكِن أَينَ الهَواءُ لِأَطيرَ؟ في جَوفي صَوتانِ يَتَصارَعانِ: أَحَدُهُما سَبَقَني وَالآخَرُ قَديمٌ عَتيقٌ، صَوتٌ يَهدي وَآخَرُ يُضِلُّ، صَوتٌ يُحَرِّرُ وَآخَرُ يُقَيِّدُ! فَإِلى أَيِّهِما أَمضي؟ وَبِأَيِّهِما أَقتَدي؟

أَحلُمُ بِالغَدِ طَوالَ اللَّيلِ، فَإِذا جاءَ النَّهارُ امَّحى ما حَلُمتُ بِهِ! موطني لا أراه هنا، وَأَحلامي تَفوقُ قُدرَتي وَتَستَعصي عَلى التَّحقيقِ! يا لَيلُ! أَنتَ شاهِدٌ عَلى حَيرَتي، وَيا نَجمُ! أَنتَ رَفيقُ غُربَتي! وَيا دَهرُ! كَم ظَلَمتَني وَجُرتَ عَلَيَّ! أَنا كَالسَّيفِ البَتّارِ في غِمدٍ صَدِئٍ، وَكَالنّارِ المُتَأَجِّجَةِ تَحتَ الرَّمادِ! أَنا كَالبَحرِ الهائِجِ في قارورَةٍ، وَكَالرّيحِ العاتِيَةِ في زُقاقٍ ضَيِّقٍ! إِنّي لَأَعجَبُ مِن زَمَنٍ يُقَيِّدُ الأُسودَ وَيُطلِقُ الثَّعالِبَ! وَأَعجَبُ مِن دَهرٍ يَحبِسُ النُّسورَ وَيُحَلِّقُ بِالغِربانِ!

أيُّها الصَّاحِبُ الذي أَفنَينا في حُبِّهِ أَعمارَنا، تَنَكَّرَ لَنا كَما يَتَنَكَّرُ الثَّرى لِلغَيثِ! بَعدَ أَن قَضَينا مَعَهُ زَمَنًا أَطوَلَ مِن لَيلِ المَهجورِ، رَحَلَ عَنّا واعِدًا بِالرُّجوعِ كَوَعدِ البَرقِ لِلصَّحراءِ، فَما آبَ!

وَالآنَ، إِذا تَلاقَت أَعيُنُنا، لا يَغُضُّ طَرفَهُ كَما لا تَنحَني الطَّودُ أَمامَ عَصفِ الرِّياحِ. حَتّى سُؤالَ الحالِ بَخِلَ بِهِ عَلَينا، فَلَم يَنبِس بِبِنتِ شَفَةٍ كَما لا تَنطِقُ الدِّمَنُ بِأَخبارِ مَن رَحَلوا.

هَذا الذي أَضَعتُ في هَواهُ مُهجَتي وَروحي كَضَياعِ القَطاةِ في بَيداءَ مَهلَكَةٍ، عَلِمتُ الآنَ كَيفَ تَكونُ الأَفئِدَةُ غادِرَةً كَغَدرِ السَّرابِ بِالهائِمِ. كَيفَ هِيَ جَوفاءُ مِنَ الشَّوقِ كَجَوفِ الرَّبعِ الخالي، أَمِ القَسوَةُ هِيَ طَبعُ مَعشوقي كَطَبعِ الصَّخرِ الأَصَمِّ؟

وَأَنا، مِن فَرطِ ذُهولي وَلَوعَةِ كَبِدي، لا أَلفى نَفسي إِلّا هائِمًا بِالقُلوبِ الغادِرَةِ، كَهُيامِ الظَّبيِ بِسَرابِ الفَلاةِ! أَيَعودُ زَمانُ الوِصالِ أَم قَد مَضى كَما مَضَت أَيّامُ ذي قارٍ؟ وَهَل يَلينُ فُؤادُ الحَبيبِ أَم سَيَظَلُّ أَقسى مِن صَخرِ الصَّفا؟

وَاحَرَّ قَلباهُ! كَم ذا أُقاسي مِن جَفوَةِ مَن أَحبَبتُ؟ أَلا يا دَهرُ! كُفَّ يَدَ الفِراقِ عَنّي، فَقَد أَثخَنَتني جِراحُ الهَجرِ. وَيا قَلبُ! كَفاكَ خَفَقانًا لِمَن لا يَأبَهُ بِكَ، فَقَد آنَ أَوانُ السُّلوِّ.

أَلا هَل عِندَ الدّارِ مِن مُخبِرٍ، أَم هَل تَرُدُّ الرِّياحُ مِن عِطرِ مَن رَحَلوا؟ وَهَل يَنفَعُ البُكاءُ عَلى أَطلالٍ دَرَسَت، أَم قَد حانَ وَقتُ الرَّحيلِ وَطَيِّ صَفحَةِ الوَجدِ؟ فَوا أَسَفاهُ عَلى حُبٍّ ضَيَّعتُهُ، وَوا حَسرَتاهُ عَلى عُمرٍ أَفنَيتُهُ في هَوى مَن لا يَهواني!

أَلا يا لِلدَّهرِ وَعَجائِبِهِ! ما خَطَرَ بِالبالِ وَلا هَجَسَ في الخَلَدِ، أَن يَغمُرَني هَذا الخَيرُ الغَزيرُ، وَتَنقَلِبَ أَحوالي انقِلابَ الصَّحراءِ القاحِلَةِ إِذا جادَها الوابِلُ. بَيدَ أَنَّ مَن بِيَدِهِ زِمامُ أَمري، وَناجَيتُهُ بِأَعماقِ فُؤادي، كانَ أَقرَبَ إِلَيَّ مِن شِريانِ الوَريدِ، وَأَروى لِظَمَئي مِن ماءِ الغَمامِ.

حينَ أَستَغفِرُهُ، يَنشَقُّ صَدري بِالنُّورِ وَيَفيضُ، كَما تَنشَقُّ الأَرضُ بِالنَّباتِ بَعدَ طولِ الجَدبِ. وَأَرضى بِقَضائِهِ رِضا الغَزالِ بِمَرعاهُ، مُستَذكِرًا هَديَ الحَبيبِ المُصطَفى. وَاللهِ لَقَد عانَينا مِن البَلاءِ ما يَنوءُ بِحَملِهِ الجَبَلُ الأَشَمُّ، فَصَبَرنا صَبرَ الكِرامِ، حَتّى جَعَلَ خاتِمَتَها أَبهى مِن القَمَرِ في لَيلَةِ البَدرِ.

يا مَن يَعلَمُ السِّرَّ وَأَخفى، يا جَزيلَ النَّوالِ وَالعَطاءِ! أَجِدُ السَّكينَةَ حينَ أَهتِفُ بِاسمِكَ يا اللهُ، فَتَتَلاشى الهُمومُ كَما يَتَلاشى سَوادُ اللَّيلِ أَمامَ ضِياءِ الصُّبحِ. سَعادَةُ القَلبِ، يا مَولايَ، رَهنُ إِشارَتِكَ، وَأَنتَ بِفَيضِ جودِكَ تُغدِقُ عَلى عِبادِكَ كَما يُغدِقُ السَّحابُ الهَتّانُ عَلى الأَرضِ العَطشى.

وَأَنتَ المُيَسِّرُ، يا عَلّامَ الغُيوبِ! بِها تَقضي يَستَريحُ القَلبُ وَيَطمَئِنُّ، كَاطمِئنانِ النَّسرِ في ذُرى الجِبالِ. يا سَيِّدي وَمَولايَ! حالي أَوضَحُ عِندَكَ مِن شَمسِ الضُّحى، يا أَحَدُ يا صَمَد!

فَيا رَبَّ الأَكوانِ وَخالِقَ الوُجودِ! أَنتَ مَلجَئي حينَ تَضيقُ المَسالِكُ، وَأَنتَ غَوثي حينَ تَنقَطِعُ الحِبالُ. فَلا تَكِلني إِلى نَفسي طَرفَةَ عَينٍ، وَاجعَلني مِمَّن تَكلَؤُهُم عَينُكَ السّاهِرَةُ.

أَلا فَليَشهَدِ الوُجودُ بِأَسرِهِ عَلى جَلالِكَ وَكِبريائِكَ! وَلتُسَبِّحِ الخَلائِقُ بِحَمدِكَ كَما تُسَبِّحُ الأَفلاكُ في دَورانِها! فَأَنتَ البادي وَالخاتِمُ، وَالعَلِيُّ وَالباطِنُ، وَبِيَدِكَ مَفاتيحُ السَّماواتِ وَالأَرَضينَ.

يا مَن إِذا تَجَلّى لِلجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا! يا مَن بِكَلِمَةٍ مِنهُ كانَ الكَونُ وَما فيهِ! أَنتَ القاهِرُ فَوقَ عِبادِكَ، وَأَنتَ الرَّحيمُ بِهِم في آنٍ. فَسُبحانَكَ ما أَعظَمَكَ وَأَجَلَّكَ! تَبارَكتَ وَتَعالَيتَ يا ذا الجَلالِ وَالإِكرامِ!

يا دارَ الأحلامِ، إنَّ في جَنَباتِكِ ما يَعجزُ اللسانُ عن وصفِهِ، وقد أيقنتُ ذلكَ مُذ أولِ عِناقٍ تَبادَلناهُ كتَبادُلِ السَّحابِ والبَرقِ!

أيا مَوطِنَ الرُّؤى، أَوَتكفي أحلامُكِ لِتُنسيني نَوحًا كَنَوحِ الخَنساءِ على صَخرٍ، وتَطوي آهاتي طَيَّ الصَّحيفةِ في الدَّرجِ؟ أَهيَ وافيةٌ لِتُحيلَ دَمعي ابتساماتٍ مُشرِقةً كإشراقِ الشَّمسِ بعدَ طولِ غِيابٍ؟

يا بلدةَ الأمانِي، إنَّ نُجومَكِ تُناجيني في كُلِّ ليلةٍ كمُناجاةِ الحَمامِ، كَواكِبُكِ تُسارُّني في كُلِّ دُجى كَمُسارَّةِ القَيسِ لِلَيلى، مُؤَكِّدةً أنَّ الشِّتاءَ لن يَرحلَ قريبًا كما لا تَرحلُ الجِبالُ عن مَواضِعِها، باقٍ كَبَقاءِ الأثافي في مَواقِدِ الدِّيارِ، وأنَّ الظَّلامَ سيَستَمِرُّ في اكتِنافِ السَّماءِ اكتِنافَ الذِّئبِ لِفَريسَتِهِ!

يا مَدينةَ الخَيالِ، ما عادَتِ العَصافيرُ تَشدو شَدوَ المُحِبِّ لِمَحبوبِهِ، ولا الرِّياحُ تُراقِصُ الأزهارَ مُراقَصةَ الفارِسِ لِفَرَسِهِ! ولا النَّسائِمُ تُداعِبُ الزَّهرَ مُداعَبةَ عَنتَرةَ لِعَبلةَ! أَوَآنَ أوانُ الرَّحيلِ كَرَحيلِ القَطا عن مَواطِنِ المِياهِ؟

يا مَسكَنَ الأحلامِ، لا زالَ في صَدري سُؤالٌ أخيرٌ يَدُقُّ دَقَّ الطَّبلِ في ساحةِ الحَربِ: مَتى يَحينُ مَوعِدُ بَوحِ الحَقيقةِ كَبَوحِ الصُّبحِ بِنورِهِ؟

أَلا يا لَيلُ! أَنصِت لِنَوحِ قَلبٍ أَثخنته شَواجِنُ الذِّكرياتِ وَأَوهَنَتهُ، هَذا الفُؤادُ يَهيمُ في رَوابي الأَمسِ كَالقَطا، يَستَقي مِن آبارِ الحِكاياتِ العَتيقَةِ كَظَمآنٍ وَرَدَ غَديراً. يَسرَحُ في فَيافي الذِّكرياتِ كَناقَةٍ ثَكلى أَضَلَّت هَوادِجَها، يَعيشُ مَعَ الماضي كَأَنَّهُ ظِلٌّ لا يَبرَحُهُ، يُلازِمُهُ كَما يُلازِمُ السَّنا جَبينَ القَمَرِ.

وَيحَ نَفسي! أَيُّ طِلسَمٍ في تِلكَ الأَيّامِ يَجتَذِبُني إِلَيها اجتِذابَ السَّيلِ لِلحَصى؟ لِمَ يَحِنُّ لُبّي إِلَيها حَنينَ الصَّبِّ إِلى لِقاءِ الحَبيبِ؟ وَلِمَ أَشتاقُ إِلى العَودَةِ إِلَيها كَما يَشتاقُ المَنفيُّ إِلى أَرضِ الوَطَنِ؟

لا جَوابَ يُسكِتُ أَنينَ رُوحي المُعَذَّبَةِ، وَلا تِرياقَ يَشفي كَسرَ قَلبي المَهيضِ. كَم مِن حَولٍ انصَرَمَ حَتّى غَدَتِ الذِّكرى نَهجَ حَياتي وَعِرقَ حَياتي؟

في لُبّي أَلفُ أُرجوزَةٍ مِن عَهدٍ بائِدٍ، تَصخَبُ في مَسمَعي كَقَصفِ الرَّعدِ في لَيلَةٍ دَجنَةٍ، وَتَتَرَدَّدُ في صَدري كَصَليلِ السُّيوفِ في ساحَةِ الوَغى.

كُنتُ غُلامًا يافِعًا كَغُصنِ البانِ، وَإِذ صَحَوتُ أَلفَيتُ العُمرَ قَد وَلّى دونَ أَن يَصطَحِبَني كَأَنّي شَبَحٌ مِن الجانب الآخر. أَيَّتُها حَسرَةٍ تَعتَريني! لِمَ لَيسَ لي غَدٌ كَفَجرٍ وَضّاءٍ؟ لِمَ أَتيهُ في دَياجيرِ الحَيرَةِ كَأَرقَمَ ضَلَّ جُحرَهُ؟ لِمَ يَعجَزُ يَراعي عَن نَقشِ حُلمٍ يُؤانِسُ وَحشَتي؟

حَمَلَتني الذِّكرى عَلى أَجنِحَةِ الحَنينِ إِلى أَيّامِ النَّعيمِ، حَيثُ كُنتُ غِرًّا جاهِلاً بِالأَسى وَالوَحشَةِ، أُغَرِّدُ كَالهَزارِ، أَحلامي يانِعَةٌ كَثِمارِ الفِردَوسِ، قَريبَةُ المَنالِ كَنَجمَةٍ في كَفِّ صَبِيٍّ.

أَنتَمي إِلى الذِّكرياتِ كَانتِماءِ السَّنابِلِ إِلى التُّرابِ، كَانتِماءِ الرُّوحِ إِلى الجَسَدِ، كَانتِماءِ الفَرعِ إِلى أَصلِهِ، وَلَيسَ لي في هَذا الزَّمانِ مَوطِئُ قَدَمٍ. أَجِبني يا لَيلُ، هَل سَأَبقى هائِماً في صَحراءِ الحاضِرِ، أَتَعَقَّبُ سَراباً يَخدَعُني بِوَعدِ الارتِواءِ، أَم أَنَّ زَماني سَيُقبِلُ عَن قَريبٍ كَإِقبالِ الصُّبحِ بَعدَ طولِ السُّرى؟

لا أبتغي أن تعصف بي رياح الزمن، فأستفيق على غرة الدهر شيخاً هرماً، أتأمل وجهي في مرآة الأماني المحطمة. لا أروم أن يخبو أوار شبابي، أو ينطفئ جذوة عزمي الوقاد. لا أرضى أن أودع آمالي وهي في مهدها، بل أصبو إلى رؤيتها قد أينعت ثمارها، وبلغت أشدها. لا أبغي حياةً تسقيني كؤوس الأحزان، وتجرعني مرارة الآلام. بل أنشد عيشاً مترعاً بالمسرات، فياضاً بالبهجات، زاخراً بالأفراح كزخر البحار.

إننا لنكبر بوتيرةٍ مفزعة، كأنما يسابق العمرُ الريحَ في مضيه. أضحينا نقلص دائرة الخِلان، كما تنكمش الواحة في صحراء قاحلة. نواجه الأحزان بسكينةٍ كأن قلوبنا تصلبت كالصخر الأصم.

نتغافل عن أمورٍ جسام، مع أن عيوننا ترى الحقائق جليةً كالشمس في رابعة النهار. بيد أننا نؤثر الصمت، أصبحنا كرهبان الدير، نلوذ بالسكوت عن كل ما نشاهد.

فارقنا ذاك الحماس المعهود، الذي كان يشتعل في صدورنا كالنار في الهشيم. وأمسينا لا نكترث لشيء، ولا نلقي بالاً لأمرٍ مهما عظُم شأنه، تبدلنا أشباحاً تمشي على الأرض، لا تحرك ساكناً ولا تثير عاصفة.

إن هذا التحول لَعجيب، نسلخ جلودنا القديمة كما تفعل الأفاعي، لنظهر بحُلةٍ جديدة، أكثر صلابةً وأقل تأثراً بما يجري حولنا.

نحت الزمان في أرواحنا نحتاً، فأزال ما كان فيها من لين وطراوة، وأبقى فيها الصلب المتين. فصرنا نواجه الدنيا بوجهٍ من حجر، وقلبٍ تدرع بدروع التجارب المريرة.

إن هذا التّقلّب لَمخيف حقاً، نودع فيه شباباً مضى ونستقبل شيخوخةً أتت قبل أوانها. بتنا نرى الدنيا بعينٍ أخرى، عينٍ شبعت من المناظر وملت من المشاهد، فلم تعد تبهرها الألوان ولا تستفزها الأحداث.

لا تزال شمس عمرك في أوج ضحاها، ولم تنطفئ بعدُ شعلة أحلامك الوضّاءة. فإن خابت مساعيك اليوم، فاعلم أن الغد حبلى بالآمال والفرص السوانح.

فلا تبتئس، ولا يعتريك الوَجَل. وإن أضناك السعي وأنهكك الكدّ، فاسترح قليلاً كالصقر الحرّ على ذروة الجبل. ولكن إياك أن تركن إلى الدّعة والخمول، بل واصل المسير حتى تبلغ غايتك المنشودة.

وإذا ما حالفك النصر وابتسم لك الدهر، فلا تدع لسان حاسدٍ أو عاذلٍ يُقلّل من شأن ظفرك المبين. بل احتفِ بانتصارك احتفاء الفارس بغنيمته، وابتهج ابتهاج الشاعر بقصيدته الغرّاء.

فأنت – والله – تستحق كل ذرة فرح وسرور، وكل لحظة بهجة وحبور. فكم من ليالٍ سوداء قضيتها ساهراً، تناجي النجوم وتحلم بهذه اللحظات. فهنيئاً لك، ولتكن أفراحك دائمة ما دام في السماء نجم يسري!

ألا إنَّ الحياةَ، بما فيها من صروفٍ وأهوال، ليست مضماراً للتباري في إيذاء الآخرين. فلا تحسبنَّ، يا ابن آدم، أنَّ غايةَ الوجودِ هي إلحاقُ الأذى بأخيك الإنسان، أو السعيُ حثيثاً لإيقاعِ الضررِ به.

إنَّ مَن يظنُّ أنَّ مَجدَ الدنيا يُبنى على أنقاضِ الآخرين، لَهو في ضلالٍ مبين. فالحياةُ، في جوهرها السامي، ميدانٌ للتآخي والتآزر، لا ساحةٌ للتناحرِ والتدابر.

لا تجعلنّ قلبك وعاءً للحقدِ والضغينة، بل اجعله منبعاً للخيرِ والفضيلة. فإنَّ المرءَ الذي يسعى جاهداً لإيذاءِ غيره، إنما يحفرُ لنفسهِ حُفرةً من الندمِ والأسى.

تذكَّر، أنَّ أعظمَ انتصارٍ هو الانتصارُ على النفسِ الأمّارةِ بالسوء. فكُنْ كالنخلةِ الباسقة، تُرمى بالحجارةِ فتُسقِطُ رُطباً شهياً.

الحياةُ أقصرُ من أن تُقضى في المنازعةِ والمشاحنة، وأثمنُ من أن تُهدَر في إيذاءِ الخَلق. فاسعَ، إلى إعمارِ الأرضِ بالخيرِ والمعروف، واجعل من وجودِك نفحةً طيبةً تُسعِدُ مَن حولك.

لا أبتغي أن تعصف بي رياح السنين، ولا أن تنهش جسدي أنياب الأيام. أود أن أظل غضاً طرياً كغصن الزيتون، متوهجاً كشعلة لا تخبو. ليتني أبقى في ريعان شبابي، في عنفوان العشرين، حتى يوارى جثماني الثرى.

أتوسل إليك، أيها الدهر القاسي، ألا توقظني ذات صباح لأجد خصلات شعري قد اكتست بياضاً كالثلج، وجبيني قد تخددته أخاديد الزمن. أستعيذ بك من يوم تنوء فيه عظامي، وتتهدل مفاصلي كأغصان شجرة عجوز، فلا أقوى على الخطو الوئيد، ناهيك عن الركض كالغزال الشارد.

آه، ليتني أعود طفلاً بريئاً، ألهو وألعب في حدائق العمر الغضة، أتنسم عبير الحياة بصدر رحب، وأغرد كالبلبل في سماء لا تعرف الغروب. أود أن أبقى في ربيع الحياة أبداً، لا يذبل لي ورق، ولا تجف لي ساق.

يا ليت الزمن يتوقف عند لحظة البهاء والجمال، فلا تعرف النفس الذبول، ولا يعرف القلب الخفقان البطيء.

أيها الدهر، ارحم قلباً يخفق بحب الحياة، ونفساً تتوق إلى الخلود. دعني أسبح في بحر الشباب الزاخر، وأطير في سماء الصبا الصافية. لا تقيدني بسلاسل الشيخوخة، ولا تكبلني بأغلال الهرم.

فإن أبيت إلا أن تمضي بي قدماً في طريق الفناء، فهب لي قلباً يظل فتياً، وروحاً تبقى متوهجة. دع جسدي يشيخ إن شئت، ولكن اترك لي ضحكة الطفل، ونظرة الشاب الحالم، وحماسة الفتى المغامر. فلعل في ذلك عزاءً لنفس تأبى الشيخوخة، وتعشق الحياة حتى الرمق الأخير.